

سُورَةُ الْمُلْكِ

عرض ودراسة

تتناول هذه السورة قدرة الله وسيطرته الكاملة على الكون وخلق الحياة والموت وإبداعه السموات السبع دون عِوَجٍ أو أَمْتٍ وما رَصَّعها به من نجوم جعلها رجوماً للشياطين وما ينتظرهم ومنتظر الكفار من عذاب الجحيم ، وما ينتظر المتقين الأبرار من الغفران والنعيم ، وما أكرم الله به الإنسان في حياته من رغد العيش ، وما أسبغه عليه من رحمته ، وكيف ذللَّ الهواء للطير يسبح فيه حسبها شاء ، وما أغدق على الناس من أرزاق ، وما يتأدى فيه أهل الغنى من طرق الضلال ، وما يسير فيه أهل الهدى من سبيل الرِّشَاد . ويذكر الله نعمه على الناس في الخلق واستمتاعهم بالحياة ، وكيف يستعجل المشركون العذاب وقيام الساعة ، وما كانوا يتمنونونه للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الموت ، وما توعدهم الله به من العقاب وزوال ما هم فيه من مننٍ إلهية .

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

معنى (تَبَارَكَ) تنزَّه وتقدَّس ، وإضافة الفعل إلى الله تفيد تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله . ولا تفيد الكلمة من معاني التعظيم والإجلال كانت لا تُستعمل إلا مع الله ، وكان معناها تعالى الله عن كل ما سواه . وقيل (تبارك) من البركة وهي كثرة الخير ، وكان معناها كثر ما يُفيض الله من الخيرات على مخلوقاته وتزايدت مِنه ونعمه ، كما قال تعالى في سورة إبراهيم : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) وكانه لما كانت النعم والخيرات

الإلهية تعمُّ من حيث لا يحسُّ الناس مصدرها ، وبصور لا تكاد تُحصَى ولا تُستَقْصَى ، قيل لكل ما يزيد زيادة غير محسوسة إنه مبارك وفيه بركة . وإلى هذه البركة أو الزيادة أشار الحديث النبوي : « لا يَنْقُصُ مالٌ من صدقةٍ » . وقيل : بل (تبارك) من بَرَكَ الشيء إذا ثَبَّتَ ، ومنه برك البعير على الماء أى ثبت ودام ، وكأنَّ معنى (تبارك) ثبت بدون انقطاع ودام دواماً متصلاً . ويمكن أن تفيد الكلمة كل هذه المعاني فالله جلَّ شأنه تبارك أى تقدَّس وتعالى ودام فضله وكثرت خيراته . و (المُلْك) التصرف بالأمر والنهى والخلق والحياة والموت والإعطاء والمنع والإغناء والإفكار والإعزاز والإذلال إلى غير ذلك من شؤون عظمة الله وآثار قدرته الإلهية وسلطانه الأزلي . وفرَّقوا بين الملك والملكوت ، فقالوا الملك عالم الأجسام والملكوت عالم الأرواح . ولاحظوا أن الله حين يتحدث عن تصريفه في عالم الملك بحسب مشيئته ينعت نفسه بالتبارك كما في هذه الآية تصويراً لقدسيته وعظمته وكثرة خيراته وبركاته . وحين يتحدث عن تصريفه في عالم الملكوت بحسب مشيئته كما في آية سورة يس : (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) ينعت نفسه بالتسبيح أى التنزيه الذى يناسب المجردات عن المادة . وهو يفيد معنى التسخير اختياراً للإنسان وطوعاً أو طبعاً لغيره كما في آية سورة الحشر : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) . ومن أجل ذلك كان هو الذى يناسب الملكوت ، فى حين يناسب التبارك عالم المحسوسات فى الأرض . وقوله (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) كما يقال فلان بيده الأمر والنهى والحل والعقد . كناية عن القدرة على تصريف الأمور ، ولا يد ولا جارحة فى الواقع . وقال الزمخشري : ذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك

والاستيلاء عليه . ومرّ بنا أن استخدام اليد في مثل هذا التعبير إنما يراد به التمثيل ولا قبض ولا طى ولا يد ، كما قال تعالى في سورة الزمر : (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ولا يمين ولا يد ، إنما هو تمثيل لعظمة الله وتصوير لبسطه سلطانه على الكون ، وكانَ أزمَةً كل ما فيه مجموعة إلى يده أو إلى يمينه . (وهو على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ) قدير صفة مبالغة من القدرة ، أى هو وحده قادر على كلِّ شيءٍ من الأشياء يتصرف فيه حسب مشيئته وإرادته . وقال الزمخشري : هو على كل ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قدير . وبسط . ذلك الفخر الرازي قائلاً إن القدرة صفة مؤثرة لا بد لها من تأثير ، وهى لا تتعلق بالموجود الواجب وجوده لأنه لا يحتاج في وجوده إلى شيء ويمتنع زواله . وهى أيضاً لا تتعلق بالموجود الممكن من حيث إيجاده لأنه موجود ولا يراد وجوده وإلا كان تحصيل حاصلٍ . وبالمثل المعدوم الممتنع وجوده ، إذ لا يمكن إيجاده فلا تتعلق به القدرة . إنما تتعلق بالممكنات المعدومة توجدها حسب مشيئة الله . وكذلك يمكن أن يقال إن قدرة الله تتعلق بالممكنات الموجودة بإبقاء الوجود عليها وبتحويلها من حال إلى حال . والكون كله إنما هو ممكنات يصرفها الله المسيطر على الوجود جميعه بعظمته وسلطانه الأبدي . إن الكون كله مسخر بيده يصنع به ما يشاء . وباطل ما يقوله بعض المتفلسفة من أنه لا يوجد في الكون ولا يؤثر فيه سوى الطبايع . وباطل ما يقوله الدهريون من أنه لا مؤثر في الوجود سوى الدهر وتعاقب الليل والنهار . وذهب المجبرة من المتكلمين إلى إلغاء قدرة الإنسان وأنه لا يوجد في الكون سوى قدرة الله ، وإلا أمكن الإنسان أن يعارض القدرة الإلهية . والقياس منكسر ، لأنه لا تعارض بين القدرتين ، فالإنسان له قدرة صغرى يصرف

بها مملكته وحياته ، وبذلك يكون مسئولا عن أعماله وما يأتي من الخير والشر ، والله له قدرة كبرى يصرف بها الكون ويضع بها فيه الأسباب والعلل العامة . ويقول الغزالي : مملكة الله الوجود في الدنيا والآخرة ، ومملكة المرء الخاصة به قلبه ، وجنده شهوته وغضبه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويده وسائر جوارحه ، فإذا ملك القلب الرعية والجند وصرّفهما في رضا ربه سعد في دنياه وآخرته . والله بعد ذلك له الأمر كله ينفذ مشيئته العليا في الكون ، ولا راد لمشيئته . القدرة نعمته والعظمة صفتة ، وكل ما في السموات والأرضين في قبضته وخاضع لإرادته .

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

قال الزمخشري الحياة ما يصح بوجوده الإحساس أو ما يوجب كون الشيء حياً . والموت عدم ذلك فيه . ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصحح وإعدامه . وقال أيضاً إن الحياة هي الصفة التي يستطيع الموصوف بها أن يعلم ويقدر . والموت بذلك عنده كما هو عند المعتزلة ، ضرب من العدم لتلك الصفة الوجودية . ومعتقد أهل السنة أنه صفة وجودية مضادة للحياة كالحرارة والبرودة ، والحياة صفة وجودية زائدة على الذات مغايرة للقدرة والعلم تمكن الذات من الاتصاف بهما . واحتجوا لقولهم ، بالآية المذكورة لأن الله قال : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ) والعدم لا يُخلق . والزمخشري والمعتزلة معه لا يريدون بالعدم في الموت العدم المطلق ، وإنما يريدون فقدان الحياة وما يتصل بها من الإحساس والحركة ، وبذلك يصح تعلق الخلق

بالموت كتعلقه بالحياة . وتساءل المفسرون عن المراد بالحياة والموت في الآية ولماذا تقدم الموت على الحياة وهو متأخر عنها . وتعددت إجاباتهم فمن قائل إن المراد بالموت ما سبق حياة الإنسان في وجوده على الأرض من العدم ، فالموت أسبق لأن الأشياء كلها كانت مواتاً ثم لا يستها الحياة كما جاء في آية سورة البقرة : (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) وكان الحياة في الآية هي الحياة الدنيا . وقيل : بل المراد بالموت في الآية الموت في الدنيا وبالحياة الحياة في الآخرة كما جاء في آية سورة الفرقان : (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا) فإن المراد بالموت في الآية الموت الدنيوي بدليل ذكر النشور أي البعث . وقدم الموت فيها على الحياة كما قدم هنا لأنه أكثر اتصالاً بالسياق إذ المراد ببيان قدرة الله وتخويف الإنسان من مصيره وما كُتِبَ عليه من الموت حتى يتدبر حياته ويعمل لغيره . وقال بعض المفسرين إن المراد بالموت أيامه وهي أيام الدنيا ، سميت بالموت لانقضائها ، في حين سميت أيام الآخرة بالحياة أو أيام الحياة لدوامها وخلودها ، ومن أجل ذلك قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة ، وهو تأويل بعيد . وقيل قدم الله الموت لأنه هو الذائق في عالم ملكه ، على حين أن الحياة عرضية ، إذ يسبقها الموت ويلحقها الموت ، وكان صاحب هذا القول نسي أنه يكون بعد الموت الثاني الخلود في الدار الآخرة . والأقرب أن يكون المراد بالموت الدنيوي وبالحياة الدار الآخرة ، وفي الحديث : « لولا ثلاث ما طأضاً ابن آدم رأسه : الحاجة والمرض والموت وإنه مع ذلك لوثاب » . وقيل معنى (خسر) في الآية قدر ، فإن الخلق يجيء في القرآن بمعنى التقدير كما في آية سورة « المؤمنون » : (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْمَخَالِقِينَ) أي المقدرين . والأولى أن يكون الخلق في الآية بمعنى

الإيجاد ، كما مر بنا ، وكأن الله يخلق الموت ثم يميت كما يخلق الحياة ثم يميتها . فكل ما على الأرض من خلقه ، وكما منحه الحياة سيمنحه الموت ، حتى الموت نفسه ، وكأن هذه الآية هي التي ألهمت عمران بن حطان الشاعر الأموي أن يقول :

لا يُعْجِزُ الموتَ شَيْءٌ دُونَ خَالِقِهِ وَالْمَوْتُ فَإِنْ إِذَا مَا نَالَه الْأَجَلُ

فالموت كالحياة مخلوق ، وله أجل ، ينتهي عنده ويفنى كما تفنى الحياة . ويقول تعالى إنه خلق الحياة والموت (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ، وظاهر الآية قد يفهم منه ما ذهب إليه المعتزلة من أن أفعال الله معللة بمصالح الناس ، وذهب أهل السنة إلى أن اللام في الآية ليست لام تعليل ، وإنما هي لام العاقبة . ومعروف أن البلاء الاختبار ، وهو في الآية ليس على حقيقته ، لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما هو بمعنى العلم أي أن الناس يظهر منهم ما يطابق علم الله في الغيب ، وكأنما يعاملهم الله معاملة من يختبرهم ليرى أيهم أحسن عملاً في حياته ، حتى يجازيهم على أعمالهم بحسب تفاوتها من الخير والشر ومن الإيمان والكفر . وكان العمل في الآية لا يراد به عمل الجوارح وحدها بل ما هو أعم ليشمل عمل العقل والقلب ، ويشهد لذلك ما يُروى من أن الرسول عليه السلام تلا الآية ، ثم فسرها بقوله : « قال الله تعالى : أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله » . يقول الزمخشري تعليقاً على الحديث : يعني أيكم أتم عقلاً عن الله وفهماً لأغراضه . وقيل أحسن الأعمال ما كان أخلص بأن يكون لوجه الله خالصاً ، وأصوب بأن يكون موافقاً للسنة أي واردة على الصورة التي أرادها الشارع . فالعمل إذا كان خالصاً لوجه الله ولم يكن صواباً لم يُقبل ، ولذلك

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأعرابي رآه لا يحسن صلاته ولا يطمئن فيها : « قُمْ صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ » . وكذلك إذا كان العمل صواباً ولم يكن خالصاً لوجه الله لم يقبل ، لأنه إنما يكون رياءً ونفاقاً فيذهب هباء . وحسنُ العمل إنما مردُّه ومرجعه إلى الشرع فما دعاه حسناً فهو حسن ، وما دعاه قبيحاً فهو قبيح ، والأعمال الحسنة هي الأعمال التي أكثر القرآن من بيانها ، سواء ما اتصل بعبادة الله أو بسلوك الشخص أو بنفعه لغيره ، وتسمى أعمالاً خَيْرَةً أو صالحة .

وقيل في تفسير (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أى أحسن أخذًا من حياته لموته ومن دنياه لآخرته ، وسُئل الرسول عليه السلام : أى المؤمنين أكْبَسُ (أعقل) ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً . والاستعداد إنما يكون بالعبادات والأعمال الطيبات . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ) العزيز ذو العِزَّة القاهرة والقدرة العظيمة ، من عَزَّ الشخص إذا غلب وسيطر ، فهو المسيطر الذى لا يُقهر ، والذى إذا سلط. انتقامه على المذنبين لم يدفعه عنهم دافع . إنه الغالب على كل شيء ، لا يتأبى عليه شيء ، ولا يعارضه أو يمانعه شيء . وقيل العزيز من عزَّ عِزَّة بمعنى ندر وقل ، فهو عديم المثل في القدرة والسلطان وغيرهما من صفاته الربانية (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) في الوجود . وقال الغزالي : العزيز هو الخطير الذى يقلُّ وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه . . فكم من شيء يقل وجوده ، ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يُسَمَّ عزيزاً ، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يُسَمَّ عزيزاً كالشمس مثلاً ، فإنها لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ولكن لا توصف بالعِزَّة ، إنما العزيز الله وحده الذى يستحيل وجود مثله والذى يحتاج إليه كل موجود في وجوده وبقائه وصفاته .

ويقول جلَّ شأنه في سورة فاطر : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)
ويقول في سورة المنافقين : (وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَإِرْسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) فهو صاحب
العِزَّة والغلبة والقدرة . ولن يعزَّ أحدٌ إلا إذا أكسبه الله العِزَّة ، وقد وهبها
لرسوله وللمؤمنين ، أما للرسول فيما منحه من الرسالة النبوية وتعاليمها التي
تهدى الناس إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، وأما المؤمنون فيما أعطاهم من
غلبة ونصر على المشركين وبما أعزَّهم به من طاعة له واستهانة بالشهوات
وملذات الدنيا الفانية ، وبذلك كانوا ذوى قدر ومنزلة وعِزَّة في الناس عِزَّة
لا تدانيها عِزَّة . ولما ذكر الله عزته وقهره وما يدل عليه ذلك من أنه منزل
عقابه وانتقامه بالعاصين تلا ذلك بذكر غفرانه وأنه يقبل التوبة من العاصين .
ودائماً يُرَدِّف الله عقابه بذكر ثوابه ليلفت الكافرين إلى الصراط المستقيم ،
بل إنه ليكثر من ذكره قبول التوبة والعفو والمغفرة ، وكأنه يفتح أمام
الناس جميعاً الأبواب كى يتخلصوا من آثامهم حتى ليقول في سورة الزمر :
(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) وذنوب واحد لا يغفره هو الشرك به ، أما بعد
ذلك فكما قال في سورة غافر عن نفسه : (غَافِرِ الذُّنُوبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ) ،
ويعصور ذلك الحديث القدسى أروع تصوير ، إذ يحكى الرسول عليه السلام
عن ربه : « مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرَوَلَةً » . وواضح أن الآية بما ذكر فيها
من خلق الموت والحياة توضيح لقدرة الله المذكورة في الآية السابقة لها ،
وقد تضمنت أن الله لم يخلق الناس دون غاية رفيعة تتصل بخلقهم ، فقد
أوجدهم ليتبعوا هداه ، وكتب عليهم الحياة والموت والنشور ليتابعوا حياة
باقية يتفاوت الجزاء فيها بتفاوت أعمال الإتيان في دنياه . ويؤكد الله
هذا المعنى في آيات مختلفات كقوله في سورة « المؤمنون » : (أَفَحَسِبْتُمْ

أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وقوله في سورة القيامة :
 (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) ؛ فالناس لم يخلقوا عبثاً ، ولن يترك
 الله الإنسان مهملًا ، فقد أكرمه بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، حتى
 يرتقوا بحياته في دنياه وآخرته ، بما يكلف - وينهض - به من أعمال تميِّز
 المتقين من المفسدين وتجعل لكل منهم حظه وجزاءه في الدار الآخرة حيث
 تجازى كل نفس بما عملت وقدمت .

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ
 مِنْ تَفَاوُتٍ) :

للمفسرين كلام كثير في تصور خلق الله السموات السبع والأرضين
 السبع ، وهل خلقت السموات أولاً أو الأرضون أولاً ، أو هل خلق الدخان
 أولاً لقوله تعالى في سورة فُصِّلَتْ : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ
 لَهَا وَالْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وماذا يقصد بالدخان
 وهل هو السديم عند الجغرافيين والفلكيين المحدثين . وفي رأبي أن كلام
 القدماء والمعاصرين في هذه الجوانب الفلكية مما يخرج عن الغاية المقصود بها
 الذكر الحكيم . فالله حين يذكر خلق السموات والأفلاك والكواكب والأرض
 وما عليها لا يقصد إلى غايات علمية ، إنما يقصد إلى العظة ، وأن يتدبر
 الإنسان الكون من حوله ليستقر في ضميره أنه لا بد من ذات عليّة أو من
 إله قادر يرفع السماء أو السموات كما يبسط الأرض والأرضين .

فهذه السموات المليئة بالمجموعات الكثيرة من الكواكب كلما اكتشف
 منها الإنسان مجموعة ، وكلما توغل في دراسة مجموعتنا الشمسية ، عرف

عظمة الكون وعظمة خالقه . وما إحصاء القرآن للسموات بأنها سبع إلا رمز لكثرة سُدمها ونجومها ومجراتها ومن الخطأ محاولة التعرف على السبع لأن هذا من عالم الغيب الذي لا يدري الإنسان حقيقة أمره ، لأنه يخرج عن قدرته ومدى عقله وعلمه . وحقاً يحاول العلماء جاهدين أن يتعرفوا على خفايا السموات وأسرارها ، بواسطة مرصدهم الفلكية وما تحاول أن تسجل من حركات الكواكب ، ولكن ما عرفوه قليل جداً على كثرة ما يحاولون من التسمع . وقرن ذلك بآيات القرآن الكونية بُعداً به عن مداره الدنيى وغاياته العليا ، ويكفى أن نعرف أنه يلفت الإنسان بقوة إلى أن هذا الكون العظيم لا بد له من مدبر يقوم على خلقه وبث ما يكفل له البقاء من أنظمة وقوانين حتى يسير في مجراه إلى الغاية التي أرادها له خالقه ومدبره ومبدعه ، وحسبنا أن ننظر ونتأمل ونتفكر في ملكوت السموات والأرض ، أما أن نحاول التعرف من القرآن على كيفية خلق الله الوجود وعلى ما أشار إليه من سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، فذلك يخرج عن غاية القرآن نفسه بما ذكره من هذه الجوانب وما يماثلها ويجب أن نؤمن بما يقول وأنه يطلب إلينا أن نفرع إلى عقلنا وأن نستخدمه استخداماً منطقياً صحيحاً لتعرف أن للكون مبدعاً لم يخلقه باطلا كما قال في سورة ص : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) فالكون لم يُخلَقْ عبثاً ، إنما خلقه الله لغاية واضحة ، يلحقه بعدها الفناء والبعث والمعاد . وما من شك في أن خلق هذا الكون الكبير يدل على قدرة عظيمة من ورائه هي قدرة الله التي لاتحدها حدود . ويبدئ القرآن ويعيد في تجسيم هذه القدرة ، تارة يدل عليها بأن الله يحفظ. السموات والأرض ويصونهما عن أن يحدث فيهما اضطراب كوني يأتي عليهما ، يقول تبارك وتعالى

في سورة فاطر : (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَإِنَّ زَالَتَا
 إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) فهو الذى يمسك بهما دون عُمْدٍ أو أى
 آلاتٍ سوى قدرته التى تقبض عليهما وتسخرهما حسب مشيئته ، وفى ذلك
 دليل كوفى قوى على وجود الله وقدرته الخارقة . وتارة يدل القرآن على قدرة
 الله بأن لكل كوكب حركته المقدره بقدر معين من السرعة والبطء . لكى
 يتم للعالم نظامه الذى أراده الله ، وفى ذلك يقول فى سورة يس : (وَالشَّمْسُ
 تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّى
 عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
 سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، فالشمس لا تنزال جارية فى الكون
 حتى انتهاء أمد الدنيا ، والقمر يجرى مثلها وتختلف صورته من ليلة إلى
 ليلة حتى يصبح كعرجون النخل أو أصل عذقه الأصفر الذى يشبه الهلال ،
 ولكل منهما مداره وما يتبعه من ليل أو نهار . مسيرة موقوتة مقدره لا خلل
 فيها ولا اضطراب ، بل نظام محكم أدق لإحكام . وكأنه يوزن بميزان لا
 تفوته ذرة مهما صغرت وضوئت ، وهو ما سجله الله مراراً فى خلقه كل شئ
 فى الكون إذ يقول فى سورة الفرقان : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ
 تَقْدِيرًا) ويقول فى سورة القمر : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) فكل شئ
 خُلِقَ بمقدار معين كأنما يوزن وزناً ، يوزن القمر وتوزن الشمس ويوزن كل
 ما فى الوجود وتيسوى صورته وصفاته وكل ما يتصل به من نظام فى نفسه
 أو مع غيره . وهى قوة خارقة ، بل هو إله قدير بسط. سلطانه على الكون
 وأقامه بمقتضى حكمته الباهرة التى بثها فيه وفى مخلوقاته . وذكر

الزمخشري في كلمة (طَبَاقاً) ثلاثة آراء : أن تكون طبقة على طبقٍ أو طبقة على طبقة ، أو أن تكون ذات طباق أو طبقات ، أو أنها طويقت طباقاً ، والمراد واضح وهو أن الله خلق السموات طباقاً يطابق بعضها بعضاً بلا مماسة ولا عماد تعتمد عليه سوى قدرة الله التي تمسكها أن تزول . ويقول جل ثناؤه : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) والتفاوت عدم التناسب في الخلقة والتكوين ، والمعنى ما ترى في خلق الرحمن أو في خلق الله من اعوجاج أو اضطراب وإن اختلفت صورته وهيئاته ، بل تراه مستقيماً مستويماً ليس فيه أى تفاوت ولا تباين . والحديث عن السموات خاصة ، فما ترى فيها من أى عيب أو أى خلل في الخلق ، بل تراها متقنة محكمة .

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) :

يقول جل شأنه : ارْجِعْ بَصَرَكَ إِلَى السَّمَاءِ وَقَلِّبِ النَّظَرَ فِيهَا حَتَّى لَا تَبْقَى عِنْدَكَ شَبَهَةٌ فِي رُؤْيَيْهَا بِعَيْنَيْكَ فَلَنْ تَرَى فِيهَا فُطُورًا . والفطور الشقوق جمع فطر ، فليس فيها صدوع ولا اعوجاج ولا اضطراب ، بل استقامة واستواء وانتظام دون أى خللٍ أو وهنٍ ، وإلا ما انتظم سير الأفلاك فيها والكواكب والنجوم ولحدثت تصدعات لا حصر لها في الكون . وارجع البصر كرتين ، والمراد مراراً كثيرة ، فلن يرجع إليك بصرك بما تلمسه من رؤية الخلل والتصدع ، بل سينقلب إليك وسيعود (خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) وخاسئاً إما من خَسَأَتِ الكلب إذا أبعدته وطردته أى أن البصر يعود ذليلاً صاغراً كأنه يُطْرَدُ عما يريد صاحبه طُرْدًا بالصغار والذلة والهوان والانقباض ،

ولما من قولهم نَحَسًا بصره خَسًا وَخُسُوءًا إذا حار ، وهو تحير من العجب والدهشة إزاء صُنْع الكون العجيب . وَحَسِير : كليل قد بلغ الغاية في الإعياء لطول المراجعة وكثرة التصفح للبحث عن رؤية الخلل ومطالعة التصدع . والله جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِنَّمَا يَصُور حَسَنَ انْتِظَامِ السَّمَوَاتِ ، فَقَدْ خَلَقَهَا بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا تَبْلُغُهَا قُدْرَةٌ ، قُدْرَتُهُ الْخَارِقَةُ الَّتِي جَعَلَتْهَا يَطَابِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَبِنَاسِبِهِ وَيَلَامُهُ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ جُزْءٌ مَحْتَاجٌ إِلَى تَسْوِيَةٍ أَوْ تَعْدِيلٍ ، فَالسَّمَوَاتُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا قَدْ تَنَاهَتْ فِي نِظَامِهَا الْكُلِّيِّ . وَلَا يُرَادُ بِالْفُظُورِ الْفُتُوقِ وَالصَّدُوعِ الْحَمِيَّةِ فِي السَّمَاءِ بَلْ يَرَادُ الْخُلْلُ الْعَامُّ فِي الْخَلْقِ . وَقَدْ سَمَاهُ خَلْقَ الرَّحْمَنِ إِشَارَةً إِلَى فَضْلِهِ الْعَمِيمِ فِيهِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَهَوَ لَا يَصُورُ قُدْرَتُهُ الَّتِي لَا حُدَّ لَهَا فَحَسَبَ ، بَلْ يَصُورُ أَيْضًا رَحْمَتَهُ بِالْعَالَمِينَ إِذْ رَتَّبَ لِلنَّاسِ الْكَوَاكِبَ الْمَتَفَرِّقَةَ فِي طَبَقَاتِ السَّمَاءِ بِحَيْثُ تُؤَدِّي لَهُمُ الْمَنَافِعَ الَّتِي تَعُودُ عَلَيْهِمُ بِالْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ . وَلَيْسَ هُنَاكَ كَوْكَبٌ إِلَّا وَضَعُ مَكَانَهُ رَحْمَةً وَتَفَضُّلاً عَلَى النَّاسِ ، وَانظُرْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَرَدِّدِ الطَّرْفَ فِيهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَأَشْرِكْ قَلْبَكَ وَفِكْرَكَ ، فَإِنَّ دَوَامَ النَّظَرِ وَطَوْلَهُ وَتَكَرُّرَهُ سَيُؤَدِّي بِكَ إِلَى أَنْ تَنْجُولَ بِعَقْلِكَ وَوَجْدَانِكَ فِي عَالَمِ السَّمَوَاتِ لِتَرَى مَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ نِظَامٍ كَوْنِيٍّ عَلَى وَجْهِ دَقِيقٍ مُنْتَهَى الدَّقَّةِ ، وَجِهَ يَدُلُّ عَلَى أَنْ وَرَاقَهُ إِلَهًا قَادِرًا رَحِيمًا حَكِيمًا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا إِلَّا سَدَّدَهُ وَقَوَّمَهُ وَأَحْكَمَ نِظَامَهُ .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِحْكَامَهُ خَلْقِ السَّمَاءِ دُونَ أَيِّ خُلْلٍ بَلْ فِي اسْتِوَاءِ

واتساق دقيقين أعقب ذلك ببيان أنه خلقها في صورة بديعة كلها جمال وبهاء . والتزيين : الزخرف والتنميق . و (السماء الدنيا) أى السماء القريبة المكشوفة للأعين ، وليس المقصود طبقة من السماء بعينها هي أقرب طبقاتها إلى الأرض ، وإنما المقصود السماء البينة لأعيننا التي نرى فيها الكواكب والنجوم سواء كان مكانها قريباً من الأرض أو بعيداً . والمصابيح جمع مصباح وهو السراج ، وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء الليل ، ويدخل فيها القمر لأنه أعظم الكواكب إضاءة في الليل وجنح الظلام ، وقد قال الله في سورة الأنبياء : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) فهي سقف للأرض كسقف البيت تضيء فيه الكواكب وتنيره ليلاً . وإذا كان الله جل شأنه زين لنا سقف دنيانا فينبغي أن نزين له ولأنفسنا سقف مساجده وبيوت عبادته بالمصابيح والقناديل . ويروى أن مسجد الرسول عليه السلام كان يوقد إذا جاءت العشاء بسعف النخل ، ثم أوقد بقناديل علقت بسواريه وأضيئت ، ثم أكثرها عمر رضى الله عنه ، فلما رآها على وهي تزهر في المسجد قال له : نورت مسجدنا نور الله قبرك يا بن الخطاب . والشياطين عصاة الجن كما مر بنا في سورة الرحمن وهم يُغَوِّونَ الناس بهمزاتهم أو وساوسهم وما ينفثون في صدورهم من نوازع الشر ودوافعه وقد صور القرآن ذلك على لسان إبليس في قوله : (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَآيِسَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) . والرجوم في الآية جمع رجم وهو ما يُرجم به الشيطان ويُرمى من الشعل المتساقطة من الكواكب كما جاء في سورة الحجر : (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) ، وفي سورة الصافات : (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ، وَكَانَ
 الرَّجِيمُ فِي آيَةِ الْجِجْرِ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الشَّهَابُ وَيُرْجَمُ بِهِ وَيُرْمَى بِنَارِهِ ، وَآيَةُ
 الصَّافَّاتِ تَسْجَلُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّفُوزَ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى
 لِاسْتِمَاعِ الْغَيْبِ ، بَلْ يَقَذِفُونَ أَوْ يَرْمُونَ بِالشَّهْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَتَوَلَّوْنَ
 مَدْحُورِينَ أَوْ مَطْرُودِينَ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ أَلِيمٌ ، وَمَنْ خَطَفَ مِنْهُمْ شَيْئًا تَبِعَهُ
 شِهَابٌ ثَاقِبٌ لَا يَفُوتُهُ . وَجَاءَ فِي سُورَةِ الْجِنِّ عَلَى لِسَانِهِمْ وَحِكَايَتِهِمْ عَنِ
 السَّمَاءِ : (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ آلَانَ يَجِدْ لَهُ
 شِهَابًا رَصَدًا) . وَذَكَرُ مَقَاعِدِ السَّمْعِ فِي الْآيَةِ وَعَدَمِ الاسْتِمَاعِ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى
 فِي آيَةِ الصَّافَّاتِ وَاسْتِرْقَاقِ السَّمْعِ فِي آيَةِ الْجِجْرِ كُلِّ ذَلِكَ جَعَلَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ
 يَأْخُذُ بِمَا قَدْ يَثْبَاطِرُ لِأَوَّلِ وَهَلَةِ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ تَسْتَمِعُ
 إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَتَتَّخِذُ لِنَفْسِهَا مَقَاعِدَ هُنَاكَ ، وَتَسْتِرْقِقُ السَّمْعَ أَوْ الْغَيْبَ ،
 وَقَالُوا إِنَّهَا مُنَعَتْ مِنْ ذَلِكَ نَهَائِيًّا مَعَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالْآيَاتُ
 جَمِيعُهَا مَجَازٌ عَنِ سُلْطَانِ اللَّهِ الْمَبْسُوطِ عَلَى السَّمَاءِ ، بَعِيْثٌ لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيَاطِينُ
 أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهَا ، نَفْيًا لِمَا كَانَ كَهَيْئَتِهِمْ يَزْعُمُونَ لَهُمْ مِنْ اتِّصَالِهِمْ بِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ
 يَنْقَلِبُونَ إِلَيْهِمْ مَا كَتَبَ فِي الْأَوْحَادِ الْغَدِّ مِمَّا سُجِّلَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، إِذْ كَانَ
 كُلُّ كَاهِنٍ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ تَابِعًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَوْ مِنَ الْجِنِّ يَسْخَرُهُ فِي نَقْلِ
 الْغَيْبِ لَهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَفَنَى الْقُرْآنُ ذَلِكَ وَدَحَضَهُ دَحْضًا مُبِينًا ، إِذْ قَالَ إِنَّ
 الشَّيَاطِينَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِلَ إِلَى هَذَا الْمَلَأِ دُونَ أَنْ تَحْتَرِقَ وَتَصْبِحَ رَمَادًا .
 وَقَدْ أَنْكَرَ الْقُرْآنُ إِتْكَارًا جَازِمًا اسْتِمَاعَ الشَّيَاطِينِ لِمَا فِي السَّمَاءِ وَنَقْلَهَا مَا فِيهَا مِنْ
 غَيْبٍ إِذْ جَاءَ فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ عَنْهُمْ : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ) أَيْ
 مَمْنُوعُونَ مَمْنَعًا بَاتًا . وَعَلَى نَحْوِ مَا أَنْكَرَ اسْتِرْقَاقَهُمُ السَّمْعَ أَنْكَرَ اسْتِرْقَاقَهُمُ الْغَيْبَ

في آية سورة الكهف : (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) فالله لم يشهدهم خلقه السموات ولا ما فيها من مغيبات يزعمها الكهنة . ويكرر الله في القرآن أنه وحده (عَلَامُ الْغُيُوبِ) وأنه لا يعلم غيب السموات والأرض سواه ، يقول في سورة النمل : (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) واستثنى في سورة الجن الرسل ذاكرا أنهم وحدهم يخصهم بالاطلاع على الغيب إذ يقول : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ) فالرسل المرْتَضُونَ وحدهم يُطلعهم على الغيب ولا يطلع عليه أحدًا من الجن والإنس فضلا عن الشياطين . وفي ذلك إبطال صريح للكهانة والتنجيم وكل ما يتصل بالتنبؤ بالغيب مما لا يعلمه إلا الله وحده . ويذكر أبو حيان عن بعض المفسرين قولاً ضعيفاً يذهب إلى أن المراد بالشياطين في الآية شياطين الإنس من الكهنة والمنجمين ، الذين كانوا ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم والتمويه والاختلاق من أذكيائهم مدعين أن للنجوم تأثيراً في سعادة الإنسان وشقائه وكان الشياطين في القرآن أحياناً يُرادُ بهم مَرَدَةُ الْجِنِّ كما في آية سورة الصافات : (أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) وإغواءهم ، وأحياناً يراد بهم مَرَدَةُ الْإِنْسِ وكهنتهم ورعوس العاصين كما جاء في سورة البقرة عن المنافقين إذ يقول الله جل ثناؤه : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) . وقد أدخل في شياطين الإنس ومردتهم بعض الباطنية أو من يشبههم— كما قال أبو حيان— ما جاء في الذكر الحكيم عن جن سليمان عليه السلام وشياطينه في مثل آيات سورة ص : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ

فِي الْأَصْفَادِ) ، وَكَأَنَّمَا الَّذِي جَعَلَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّيَاطِينِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَصَفَهُمْ فِي الْآيَاتِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا بَنَاتِينَ بَنُوا لِسُلَيْمَانَ الْقُصُورَ الْمَشِيدَةَ ، وَغَوَاصِينَ لَهُ فِي الْبَحَارِ ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ عَصَوْهُ فَأَوْثَقَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَصْفَادِ . وَرَوَى أَبُو حَيَّانٍ عَنْهُمْ أَيْضاً أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّ تَسْخِيرَ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ أَنَّهُ رَاضٍ الْخَيْلَ فَأَصْبَحَتْ كَالرِّيحِ الْمُسْرِعَةِ تَجْرِي رِخَاءَ لِيْنَةِ بَعْسَاكِرِهِ وَجُنُودِهِ . يَقُولُ أَبُو حَيَّانٍ : وَهِيَ تَأْوِيلَاتٌ فَاسِدَةٌ تَخْرُجُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمَفْسُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَتَعْجِيزٌ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ إِذْ تَنْكُرُ الْمَعْجِزَةَ الْخَاصَّةَ لِسُلَيْمَانَ . وَنَفْسُ آيَاتِ سُورَةِ صَّ الْآئِنَةِ الذِّكْرُ إِنَّمَا جَاءَتْ تَعْقِيْباً لَمَّا جَاءَ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ قَوْلِهِ : (قَالَ رَبُّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) وَيَصُورُ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي الْآيَاتِ أَنَّهُ قَبْلَ دَعَاؤِهِ فَسَخَّرَ لَهُ مَا لَمْ يَسْخَرْهُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ ، سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ وَسَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينَ ، وَجَعَلَ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى مَرْدَتِهِمْ حَتَّى قَيَّدَهُمْ فِي سَلَاسِلِ الْحَدِيدِ وَأَغْلَالِهِ . وَمِنْ حَمْلِ الشَّيَاطِينِ فِي السُّورَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدَدُهَا عَلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ مِنَ الْكُهْنَةِ وَالْمَنْجَمِينَ قَالَ إِنَّ كَلِمَةَ (رَجُومًا) جَمْعُ رَجْمٍ بِمَعْنَى الظَّنِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : (رَجُومًا بِالْغَيْبِ) أَيْ ظَنًّا ، وَكَانَ الرَّجُومُ تَنْبُؤَاتِ الْمَنْجَمِينَ وَالْكُهْنَةِ . وَقَدْ نَصَّ الْأَلُوسِيُّ وَكثيرون غيرُه عَلَى أَنَّ تَفْسِيرَ الشَّيَاطِينِ فِي الْآيَةِ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ مِنَ الْمَنْجَمِينَ لَا يَسَاعِدُهُ الْمَقَامُ وَأَنَّ الْمُرَادَ حَقًّا شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَمَا يَقْدِفُونَ بِهِ مِنْ شَعْلِ النُّجُومِ . وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْكُوكَبَ زُيِّنَتْ بِهَا السَّمَاءُ ، وَأَنَّهَا أَشْبَهَ بِمَصَابِيحَ لِلْمَعَانِهَا وَلَا تَرْسَلُ مِنَ الْأَضْوَاءِ وَبِخَاصَّةِ الْقَمَرِ مَصْبَاحِهَا الْكَبِيرِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّهُ جَعَلَهَا عِلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (وَعِلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

وقد برأها الله مما كان يدعيه العرب لمواقعها ، وهي التي كانوا يسمونها بالأنواء ، من التأثير في انعقاد السحب ونزول الأمطار ، وفي ذلك نزلت آيات سورة الواقعة : (فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) إلى قوله تعالى : (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ) أي تجعلون شكر رزقكم وما ينزل بكم من الأمطار أنكم تكذبون أن الله منزلها وتنسبونها إلى مواقعها وأنوائها .

وعن ابن عباس في سبب نزول هذه الآيات أن الناس مطروا على عهد الرسول عليه السلام ، فقال قوم مُطِرنا برحمة الله ، وقال آخرون مُطِرنا بِنُوء كذا ، فقال الرسول شَكَر قوم وكَفَرَ قوم ، ونزلت الآيات نَهياً عن الإيمان بَأَنْوَاء النجوم وأن لها تأثيراً في الأمطار ، إنما التأثير كله لله منشى الأمطار والسحب بفضله ورحمته . ويقول جَلَّ شأنه متوعداً شياطين الجن أو المنجمين وأضرابهم من الكهنة وغير الكهنة : (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) أي أعدنا لهم (عَذَاب السَّعِيرِ) وهي النار الموقدة ، ويقال إن السعير هي الدرقة الرابعة من دركات النار السبع التي مرّت بنا في ص ٩٩ ، وهي جهنم ثم اللَّظَى ثم الحُطْمَة ثم السَّعِير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . واحتج أهل السنة على المعتزلة بهذه الآية فيما ذهبوا إليه من أن النار مخلوقة الآن ، وأن خلقها لن يحدث في الآخرة ، إذ هو حادث فعلاً لأن قول الله (وأعدنا) إخبار عن الماضي .

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه كَفَرَ السحابُ السماءَ إذا غَطَّاهَا ، وفي الشريعة الكفر إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من أصول العقيدة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن الأعمال

الصالحات سواء ما اتصل منها بعبادة الله أو ما اتصل بالسلوك الخلقى أو ما اتصل بمصالح الجماعة . واستخدم القرآن الكلمة ومشتقاتها في أربعة معانٍ ، أولها وهو أكثرها دوراناً في آيات الذكر الحكيم المعنى الاصطلاحي في الشريعة كقوله تعالى في سورة البقرة : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) . والمعنى الثاني جحود النعمة كما جاء على لسان سليمان عليه السلام في سورة النمل : (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) . والمعنى الثالث نقيض الشكر كما قال تعالى في سورة البقرة : (وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) . والمعنى الرابع التبرؤ كما جاء في آية سورة العنكبوت : (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) . وقيل الكفر بالشريعة يندرج فيه أربعة أنواع : النوع الأول وهو أشنعها إنكار الله وشرائعه ويدخل فيه الشرك العظيم به كما جاء في سورة لقمان : (لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وفيه يقول جلُّ شأنه في سورة النساء : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) وقال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عن ذنبه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بربه . والنوع الثاني كُفر الجحود بالله وهو معرفته دون الإقرار به كعمرة إبليس لربه ورفضه لأمره أن يسجد لآدم ثم ما كان من إغوائه إياه وذريته عاصياً ربه جاحداً لأنعمه ، وكما حكى الله عن اليهود في جحودهم القرآن لما جاءهم مصدقاً لما معهم متفقاً مع ما يؤمنون به ، وكانوا قبل مجيئه يستفتحون به ويستنصرون قائلين لعل الله يأتي بالفتح المبين أو بأمر من

عنده فنتصر على الكافرين ، فلما جاءهم ما طال انتظارهم إياه كفروا به كما قال جل ثناؤه في سورة البقرة واصفاً إياهم : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَشْتَفِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . والنوع الثالث كفر العناد ، وهو معرفة الله المترددة باللسان والقلب ، مما يجعل الإنسان مذنباً ، مرة مؤمناً ومرة كافراً كما جاء في آية سورة النساء : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا) . والنوع الرابع كفر النفاق وهو الإنكار بالقلب والإقرار باللسان ، وهو كفر المنافقين الذين يؤمنون بأفواههم ولا تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم يمؤون الكفر حتى يغفروا المؤمنين ويخدعهم ، ولذلك توعدهم الله الدرك الأسفل من النار . والله يتوعد في الآية الكريمة كل أصحاب الأنواع السالفة من الكفر منافقين وغير منافقين بعذاب جهنم ، فقد أصموا آذانهم عن الرسول ورسائله الكريمة ومضوا في غيهم يعمهون ، فاستحقوا بذلك ما توعدهم الله به من عذاب جهنم الأبدى الذى لا يزول ولا يحول (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وبئس العاقبة .

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ . كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) :

صفات متوالية لجهنم . والإلقاء : الطرح والرمى كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويُرْمَى به كما قال تعالى في سورة الأنبياء للكفار : (إِنَّكُمْ

وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) فهم حَصَبُهَا وَحَطَبُهَا ووقودها يُرْمَوْنَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ . وَالشَّهِيقُ : رُدُّ النَّفْسِ الْمَدِيدِ ، مأخوذ من قولهم جبل شاقق لنتاهيه في الطول والارتفاع ، ويقابله الزفير وهو إخراج النفس . وقيل الشهيق في الصدر والزفير في الحلق وقيل (شهيقاً) في الآية أى صوتاً مديداً . وقيل تشهق جهنم عند إلقاء الكفار فيها شهقة الفرس للشعير ثم تفرز زفرة مخيفة . وقال قوم (لها) أى فيها ، والشهيق إنما هو شهيق الكفار المعذبين كما جاء في سورة هود : (فَأَمَّا الْبُذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . وقيل الشهيق شهيق مَنْ سِيلَقُونَ فِيهَا حين يدخلونها . والأولى أن يكون الشهيق - كما يدل ظاهر الآية - للنار ، سُمِّيَ صَوْتُهَا الْمُنْكَرَ شَهيقاً من باب الاستعارة . (وهي تَفُورُ) أى تَغْلَى بهم غليان القِدْرِ من شدة اللهب ، وكأنهم يمجون فيها كما يمجج الحب القليل في الماء المغلى الكثير ، فلا يزالون هابطين صاعدين لا يستقرون . (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ) تميز أصلها تميز حُذفت لإحدى التائين ، ومعناها تفرق وتتقطع من شدة الغيظ . على أعداء الله ، قال الزمخشري : جُعِلَتِ النَّارُ كَالْمَغْتَاطَةِ عَلَى الْكُفَّارِ لِشِدَّةِ غَلِيَانِهَا بِهِمْ ، وهم يقولون : فلان يميز غَيْظاً ، ويتقصف غضباً ، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء ، إذا وصفوه بالإفراط في الغضب أو الغيظ . والغيظ أشد أحوال الغضب ، ويقال : يكاد فلان ينشق من غيظه إذا أفرط فيه ، وكأن المعنى تكاد جهنم تفرق أجزاءها وتتمزقُ إِرْباً وقطعاً من شدة الغيظ والغضب العنيف ، شُبِّهَ اشتعال النار في الكفار وإحراقها إِيَاهُمْ باغتيال الشخص على غيره غيظاً شديداً حتى ليريد أن يمزق أعضائه ، والمغتاط عادة يغلى دمه حتى ليكاد هو نفسه يتمزق .

وقيل : نُسب التميُّزُ غيظاً إلى النار ، والمراد زبانيتهما فهم الذين يأخذهم الغيظ. على أعداء الله ، وهو تأويل بعيد . والفوج الجماعة من الناس والمراد هنا الجماعة من الكفار . وخزنة جهنم مالك وزبانيتهما ، وأصل كلمة الزبانية الشُرط جمع شُرطِيّ ، سُموا بذلك لدفعهم الكفار في جهنم بشدة وبطش وقهر ، وهم ملائكة العذاب ، وقد وصفهم الله في سورة التحريم بقوله : (مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ) أى غلاظ. القلوب قساة الأفتدة يخلون من أى شفقة وأى رحمة ، شِداد القوى والأبدان ، وقيل غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل ضخام الأجسام أقوياء الأبدان ، إذا استرحموا لم يرحموا ، لأنهم خلُقوا من الغضب وجُبِلُوا على القهر ، طبيعتهم تعذيب الخلق بدون أى رحمة . وذكر الله في سورة المُدَّثِّرِ عِدَّتِهِمْ ، فقال إنهم : (تِسْعَةَ عَشَرَ) وهم مالك خازن النار وثمانية عشر معه من الملائكة . ومما قيل في وصفهم : أعينهم كالبرق الخاطف وأنبياهم كالقرون الحادة وأشعارهم تمس أقدامهم ولهب النار يتطاير من أفواههم ، نُزِعَتْ منهم الرأفة ، يقبض الواحد منهم بكفه على سبعين ألفاً من المشركين ويرميهم حيث أراد من جهنم ، وقيل : بل قوة الواحد منهم أن يضرب بِمِقْمَعٍ من حديد أو مِرْزَبِيَّة (مطرقة كبيرة) فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً من المشركين يَهُوُونَ في النار . وقيل إنما التسعة عشر المذكورون في سورة المُدَّثِّرِ هم فقط. الرؤساء والنُّقباء ، وأما عِدَّةُ أتباعهم فأكثر من أن تُحصى لقوله تعالى في نفس السورة بعد أن ذكر العدد السالف : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) فيجوز أن يكون لكل كبير من الخزنة أعوان يُعَدُّون بالمئات أو بالآلاف ، وقيل إنهم يبلغون سبعين ألفاً ، والله أعلم بعِدَّتِهِمْ . ونفس الآية الأخيرة المذكورة بعد إحصائهم تدل على أنه ينبغي على مَنْ حَسَنَ

إيمانهم تفويض العدد إلى علم الخالق جَلَّ شأنه . وحاول المفسرون أن يعلموا تقدير إحصاء الله لهم بتسعة عشر تعليلات مختلفة ، منها أن أبواب جهنم سبعة كما أشار الله إلى ذلك في سورة الحجر بقوله : (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) ، وقالوا إن السبعة ستة منها للكفار وواحد للفاسق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لِأُمُور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل ، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر ، ثم باب الفساق ولا يكون فيه إلا ترك العمل ، فيكون المجموع تسعة عشر . وقال آخرون . إن مرجع العدد إلى أن ساعات اليوم أربع وعشرون : خمس منها مشغولة بالصلوات الخمس ، فيبقى منها تسع عشرة مشغولة بغير العبادة ويؤاخذ الإنسان على ما قد يرتكب فيها من ذنوب ، وهذه التسع عشرة ساعة هي التي تقابل عدد خزنة جهنم ، أما ساعات الصلوات الخمس فقد أكرمت ولم يخلق الله في مقابلتها أحداً من الزبانية . وقال آخرون : بل إن العدد يرجع إلى أن النجوم السيارة سبعة والبروج الموكلة بتدبير العالم السفلى اثنا عشر ، وعدتها جميعاً تسعة عشر . وهناك تعليلات أخرى ، ومن الخطأ أن تُطَلَّبَ للأعداد العلل . ومما قيل في ذلك إن عدة الخزنة بعدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم وكان المؤمن يدفع بكل حرف من هذه الحروف خزانة من خزنة جهنم . وينبغي أن يترك علم ذلك سواء ما اتصل منه بوصف الخزنة أو بعدتهم إلى الله لأنه من الغيب الذي لا نعرفه والذي تقصر العقول البشرية عن إدراكه . وسؤال الخزنة للكفار (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) إنما هو سؤال توبيخ وتقريع ، والنذير الرسول المنذر الذي ينذرهم ويبلغهم رسالة ربهم وأنهم

معروضون عليه للحساب والجزاء على ما عملوا في دنياهم من خير أو شر حتى يحذروا ويخافوا عقاب الله وعذاب النار .

(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۖ
إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) :

اعتراف صريح من الكفار بأن الله أزاح عنهم عليهم ببعثه الرسل وإنذارهم بما سيحيق بهم من العذاب إن هم لم يعقبوا الرشد وتمادوا في النفي والضلال ، غير أنهم كذبوهم وجحدوا ما أتوا به قائلين (مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ) وظلوا في كفرهم وعنادهم يحادون الله ورسله ، فاستحقوا ما نزل بهم من عقاب أليم . وهو إقرار منهم بعدل الله وأنهم اختاروا طريق الضلال الذي لا يرتضيه ، فعذابهم إنما هو من قبل أنفسهم واختيارهم لا من قبل القدر وما دفعهم إليه من الكفر، كما يقول الجبرية القائلون بأن الإنسان مجبر على كل ما يأتي ويدع من الأمر، وأنه لا حول ولا قوة ولا اختيار أمام القضاء . والآية صريحة في أن الكفار استحقوا العذاب لإصرارهم على الكفر بعد الإعداء إليهم بالرسل . وهو بيان واضح لعادل الله ، تعالى عن الظلم علواً كبيراً . وما كان ليعاقب كافراً إلا بعد تأكيد الحجة عليه والإلزام له ببعثه الرسل ، وقد أكد ذلك مراراً في الذكر الحكيم كقوله في سورة الإسراء : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) ويقول في سورة طه : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ) فهو لن يعذب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم وبعد كفرهم وجحودهم بالرسل . وبالمثل من أرسل لهم النبي عليه السلام فإن الله لن

يعذبهم إلا بعد إرساله لهم منذراً ومخوفاً ، ولو أنه عاقبهم دون إرسال رسول إليهم لقالوا له محقين هلا أرسلت إلينا رسولا فاتبعناه ولم يصبنا الذل في الدنيا والخزى في الآخرة . وما يزال الله يؤكد هذا المعنى وأن أحداً لن يدخل النار ظمأً ، إنما سيدخلها العصاة المذنبون الذين شقوا عصا الطاعة على ربهم وتعاليمه فإن كثيرين ممن أرسل إليهم الرسل مرشدين هادين رفضوا هدايتهم مع ما أقاموا نصب أعينهم من رسالات ربهم التي تسقط لهم كل حجة وتطوقهم بكل برهان على عنادهم وما أصروا عليه من الكفر والضلال ، كما قال جل شأنه في سورة النساء : (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وأى حجة ؟ ! لقد بلغوهم وأسمعوهم قوارع الله وبواهر آياته المنزلة ، ولكنهم نكلوا ومضوا في غيهم وأصروا على كفرهم إصراراً .

ويحس خزنة النار كأنهم يتضرعون إليهم من هول العذاب فيسألونهم ساخرين ألم يُرسل لكم نذير ؟ وكأنهم يقولون لهم ألم تسمعوا من ألسنة رسلكم آيات ربكم ومواعظه ثم أنكرتموها وكذبتموها ؟ ! وفي سنن الترمذى عن أبي الدرداء : يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون منه ، فيغاثون بالضريع (شجر أهل النار) لا يُسمن ولا يُغنى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئاً ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام ذى غصة ، يغصون به ، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُسبغون الغصص (التي تتعثر في الحلق) بالماء ، فيستغيثون بالشراب ، فيرفع لهم الحميم (الماء المغلي الحار) فإذا دنا من وجوههم شواها ، وإذا وقع في بطونهم قطع أمعاءهم . فيستغيثون بالملائكة من خزنة جهنم كما جاء

في سورة غافر يقولون : (ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) فيجيبونهم : (أَو لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) وحقاً لقد أعذر من أنذر وأصبح الناكل أهلاً للإيقاع به . ومن المتكلمين فرقة تسمى المرجئة كانت ترى ألا يسمى مرتكب الكبيرة فاسقاً وأن يُرجأ الحكم فيه إلى الله ، وقد احتجت بهذه الآية والسالفة لها أن الله لا يدخل النار إلا الكافرين المكذبين للرسول ، إذ يقول دائماً عنم يُلقَوْنَ في النار إنهم كذَّبوا الرسل ، وزعموا أن الفاسق لا يدخل النار لأنه ليس ممن كذبوا الله ورسله ، حتى لو أصرَّ على فسقه ، وفي سورة النساء : (إِنَّ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) وكان الكبائر لا يكفرها الله بل لا بد أن يعاقب عليها . أنه اختلف في معنى الكبائر وهل المراد الشرك بالله أو كبائر الذنوب كشرب الخمر واقتراف المحرّمات ، وهو بحث يطول . وقوله تعالى : (إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) أي ما أنتم يا معشر الرسل فيما تنذروننا به إلا في ضلال كبير تبتعدون به عن مِجَّة الحق والصواب ، وقيل : بل هذه العبارة من كلام خزنة جهنم للكفار على إرادة القول ، أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلال في الدنيا ، أو أرادوا بالضلال ما هم فيه من عذاب ، سموا عقاب الضلال باسمه أو ربما أرادوا بالضلال الهلاك .

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

معنى الآيتين أن الكفار قالوا للملائكة لو كنا نسمع سماع من يطلب

الحق ويأخذ به أو نعقل عقلَ مَنْ يتأمل ويفكر في ملكوت الله وقدرته الشاملة المحيطة بالكون ما أصبحنا في عداد أهل النار المؤقّدة ، وبذلك أقرّوا بذنبيهم وجُرمهم وكفرهم فسُخِّقاً لهم، وبعُدًا من رحمة الله ، إنهم لا يستحقون سوى النكال وعذاب الجحيم . وعجب الزمخشري من أن بعض المفسرين ذهب إلى أن (نسمع) في الآية الأولى تشير إلى أهل الحديث الذين يقدمون السماع على العقل في مسائل الشرع في حين (نعقل) تشير إلى أصحاب الرأي من الأحناف وغيرهم ممن يعتدون بالرأى والعقل اعتداداً كبيراً ، يقول منكرًا ذلك : كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين وكان سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم في الآية ! وكان من كان من هؤلاء (يريد أصحاب الحديث وأصحاب الرأي) فهو من الناجين لا محالة . وقيل إن في ذكر السمع هنا دون البصر ما يدل على أنه يفضل ، إذ جعل له مدخل في الخلاص من النار والفوز بالجنة . وتنبه بعض المفسرين كما ذكر الزمخشري إلى أن الله جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع وأدلة العقل ، أما أدلة السمع فتظهر فيما جاءنا به الرسول عليه السلام من الإيمان بالمقبيات من شئون المعاد وشئون الملائكة والجن والشياطين وجميع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن الحق جلّ جلاله من العبادات وغير العبادات ومن أصول العقيدة والإيمان بوحدانيته وصفاته القدسية العليا وأنه مرسل من لدنه لهداية البشرية . ويضيف القرآن إلى ذلك دعوة واسعة إلى استخدام أدلة العقل ، كما جاء في سورة ق : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) والقلب كما قال ابن عباس العقل ، أى أن فيما يتلو الوحي من قصص وعبر

مختلفة عظة لمن كان له عقل سليم أو أذن تحسن سمع ما يتلوه الرسول من القرآن والتأمل فيه والبصر به بصرًا ينتهي إلى الإيمان . وليس البصر فقط فيما يتصل بالدين من داخله أو مما يسمعه الناس عن الرسول ، بل أيضاً البصر بالكون وخلقه وما بثَّ فيه الله من آيات تدل على قدرته وعلمه ووحدانيته وأنه وحده المتصرف فيه ، يتصرف في الأفلاك وكل ما يتصل بالسماء ، ويتصرف في الأرض وكل ما يتصل بالكائنات مما يأخذ بزمام الإنسان لو فكر فيه إلى ساحات الإيمان العميق بالله ورسالاته على نحو ما تصور ذلك آية سورة آل عمران : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ، فَالْتَّظَرُّ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ يَفْضِي إِلَى الْإِيمَانِ بِرِسْلِهِ وَكُلِّ مَا جَاءَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ رِسَالَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ وَفِي النَّفْسِ وَفِي آثَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ، وَاخْتَمَّ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وَقَوْلِهِ : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وَوَلَامَ لَوْمًا شَدِيدًا مَنْ لَا يَسْتَعْمِدُونَ عَقُولَهُمْ فِي الْبَصْرِ بِالذِّيَّانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَشَبَّهَهُمْ بِالْأَنْعَامِ وَالذُّوَابِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) فَقَدْ جَعَلَهُمْ بِدُونِ قُلُوبٍ أَوْ عَقُولٍ حِينَ أَلْغَوْهَا ، بَلْ جَعَلَهُمْ عَمِيًّا صُمًّا فَهَمْ لَا يَفِيدُونَ شَيْئًا مِنْ آذَانِهِمْ وَلَا مِنْ أَبْصَارِهِمْ إِذْ أَلْغَوْهَا إِنْغَاءً ، حَتَّى أَصْبَحُوا أَدْنَىٰ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَيَوَانَاتِ . وَاللَّهُ بِذَلِكَ وَعَمَلِهِ يَدْعُو

الناس كفاراً وغير كفار إلى استخدام عقولهم واستخدام أسماعهم ، ليتدبروا ما يتلوه عليهم القرآن الكريم ، حتى يستضيئوا بنوره ويدخلوا في دينه ، وحتى يفروا بأنفسهم من عذاب النار إلى نعيم الجنان .

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

الخشية (بالغيب) أن تخشى الله دون أن تراه ، فتقبل على طاعته عارفاً حرمة متواضعاً لجلاله ، والله يتحدث عن المتقين وما ينتظرهم من ثواب بعد أن تحدث عن الكافرين وما سيقع عليهم من عقاب . والخشية خوف ممزوج بتعظيم وإجلال ، فهي أخص من الخوف إذ الخوف توقع العقوبة ، والخشية انقباض وهيبة وسكون إلى الله بعمل الطاعات وإخلاص له واعتصام به من خوف عذابه . ويمكن أن يكون المراد بالغيب في الآية عقاب الله ، فهم يخشون ربهم والعذاب غائب عنهم وعن أعين غيرهم من الناس . والغيب بذلك ما غاب عن الحس والعقل من العذاب ، وربما شمل أيضاً غير العذاب من كل غيب ، فهم يخشون ربهم ، مع ما غاب عنهم من الإيمان بملائكته . وكتبه ورسله والمعاد وما فيه من جزاء . وقيل (بالغيب) أى بالقلب لأنه مستور ، والمعنى الذين يخشون ربهم بقلوبهم لا كالمنافقين الذين يلوكون خشيتهم بالسنتهم قائلين بأفواههم ما ليس في قلوبهم . وقيل الخوف لعامة المؤمنين والخشية للمتقين والهيبة للمحبين والوجل للمقربين ، والهيبة كالخشية وإن علتها درجة ، فهي أيضاً خوف مقرون بالإجلال ، والوجل رجفان القلب وانصداعه . والخشية تتفاوت بتفاوت المعرفة والعلم كما قال الرسول عليه السلام : « إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » . وقيل مثل الخائف

وصاحب الخشية مثل من لا علم له بالطب والطبيب الحاذق ، فالأول يلجأ إلى الحمية والهرب من المكروه والطبيب يلجأ إلى معرفته بالأدوية والأمراض . وكل من تخافه تهرب منه إلا الله فإن من يخافه يهرب إليه ، فالخائف هارب من ربه إلى ربه . والفرق بين خوف المتقين وخشيتهم طفيف ، ولذلك يكثر في كتاباتهم أن يعبروا عن كل منهما بصاحبه ، كأن يقول أحد الزهاد الأولين : الخوف إذا سكن القلب أحرق موضع الشهوات منه وطرده مآرب الدنيا عنه ، وقيل للقُصَيل بن عِيَّاض الناسك المعروف : يَمَّ بَلَغَ بِكَ الْخَوْفُ مَا يَلِغُ ؟ قَالَ بِخَشْيَةِ الذُّنُوبِ . وللخوف أسباب أولها العقل السليم ، ثم ترك المعاصي الذي يدفع القلب ويرقى به إلى الرقة والخشية . وقد ذكر الله أن أول ما يسبغه على من يخشونه بالغيب المغفرة ، وهو يكرر في القرآن عشرات المرات أنه غفور وُغَفَّارٌ لِمَن أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَنَّهُ يَغْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، بل إنه ليقول في سورة الزُّمَرِ : (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) أى لمن تابوا ومن لم يرتكبوا سوى الصغائر مع ندمهم عليها وخشيتهم من ربهم ، فإن المرء إذا فكَّرَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ ، فوجدَها تحمل ذنوباً اكتسبها وسيئات اقترفها وانبعث منه الندم على ما فرط في جَنَبِ اللَّهِ وهجر ذلك مخافة عذاب الله وخشيتته منه استحق الغفران من ربه ، وإلا استحق العقاب لإصراره على المعصية ، إذ الإنسان يؤخذ بما وطَّنَ عليه ضميره واعتزمه بقلبه من العصيان . والحق أن الله يفتح أبواب المغفرة على مصاريعها في القرآن لمن أنابوا إليه وأخلصوا لوجهه عبادتهم وأعمالهم . ودائماً يستوجب المرء الغفران إذا اعترف بما جَنَى من الذنوب واقترف . وفي صحيح مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه عَزَّ وَجَلَّ ، قال : «أذنب عبد ذنباً ، فقال :

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يَغْفِر الذَّنْبَ ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب ، فقال : أى رب اغفرلى ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم قال : اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك . « . وفى الحديث دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب وأن الله واسع المغفرة للذنوب سعة بدون حدود ، سعة أكرم الأكرمين . والله لا يَعدُّ مَنْ يخشونه بالغيب مغفرة واسعة فقط. بل يعدهم أيضاً أجراً كبيراً ، هو الجنة وما بها من نعيم ومن رضوان الله العظيم .

(وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أمرٌ للتهديد لا للتكليف ، وهو تهديد للكفار ، كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ضد الرسول عليه السلام ، فقال بعضهم لبعض تحدثوا سراً حتى لا يسمع ربُّ محمد ما تقولون ، فقال لهم الله تحدثوا سراً أو جهراً فإن الله يعلم ما تقولون ، وإسرار الأقوال وجهرها بالقياس إليه مستويان . وتقديم الإسرار على الجهر والإعلان لبيان أنهما جميعاً عنده تعالى سواء فى تعلق علمه أو لأن السر يتقدم دائماً الجهر ، إذ ما من شيء يُجهرُ به إلا ومباده تظهر أولاً فى السر والضمير . والقرآن يكرر كثيراً تهديداً للكفار والمشركين أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون وما يكونونه فى صدورهم وما يظهرونه على ألسنتهم من مثل قوله فى سورة غافر : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

الصُّدُورُ) ، أى يعلم الأعين الخائنة ومسارقتها النظر الخبيث كما يعلم ما تضمهر الصدور ، و يقول جَلَّ شأنه فى سورة النمل : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) فما من خَصْلَةٍ وما من غيب إلا ويعلمه الله فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء الكفار وما يُعلنون ، وكل شىء عنده مثبت فى كتاب ، لا يفوته منه أى فائت ، مهما كان صغيراً ، حتى لو كان مثقال حبة من خردل . إن علمه لبحيط . بكل ما يضمهر الكفار وبكل أسرارهم الخفية المستكنة فى الصدور أو فى (ذات الصدور) وهى نفسها الصدور لأن ذات الشىء نفسه أى كل ما فيها من خير أو شر ونوايا طيبة أو سيئة . ويتردد فى الذكر الحكيم وصف الله بأنه عليم ، وأن علمه محيط . بكل شىء أسراراً وغير أسرار كما جاء فى سورة الأنعام : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) ، ومفاتيح الغيب مجاز عن شمول علم الله لكل ما غاب عنا لأن المفاتيح عادة تفتح الأبواب المغلقة المحكمة الإغلاق ، وهو جَلَّ شأنه يفتح بها خزائن الغيب كله ، فلا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وكل شىء عنده مدون فى كتاب دونه العلم الإلهى فى الأزلى ، دون ما كان وما يكون ، فهو العليم الذى لا تخفى عليه خافية لا فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم ظاهر كل شىء وباطنه ، إذ كل شىء نسبته إلى علمه سواء ، وهو علم زائد على ذاته كما ذهب إلى ذلك أهل السنة أى أنه عالم بعلمه وبالمثل بقية صفاته ، فهو قادر بقدرته ومريد بإرادته ، وقالت المعتزلة إن صفاته ليست زائدة على ذاته ،

فهو عالم بذاته وبالمثل قادر ومريد . وهو خلاف يكاد يكون لفظيا ، على الرغم من كثرة الجدل بين الآراء المتعارضة ، ويكفي أن نعرف أن علم الله مثل بقية صفاته أزلي ، فهو عالم يعلم ، قادر بقدرة ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، إلى غير ذلك من الصفات الربانية التي تردد ذكرها في القرآن الكريم . ولا ريب في أن كل ما في الوجود كأنه كتاب مفتوح أمام الله ، فهو يعلم السر والجهر والباطن والظاهر والماضي والمستقبل ، علماً غير محدود بزمان ولا بمكان كعلم الإنسان ، بل هو علم واسع لا يحده الكون ذاته ، علم يشمل كل صغيرة وكبيرة في الماضي والحاضر والمستقبل كما يعلم الإنسان ما يبصره ويراه تحت عينيه . وتدرج في القرآن صفات كثيرة لعلم الذات العلية ، في مقدمتها الوصف بأنه عليم يعلم كل شيء ومنها « الحفيظ . » الذي يحفظ الأعمال ولا ينسى منها شيئاً ليجازي عليها ، و « الشهيد » الذي لا يغيب عنه أمر من الأمور ، و « السميع » الذي لا يتناهى علمه بالمسموعات و « البصير » الذي لا يُحدُّ علمه بالمُبصرات ، و « الحكيم » الذي يعلم مواقع الحكمة في الأشياء ، فلا يدخل خلل على ما يعمله أو يخلقه ، بل كل شيء ببصيرة وبحكمة لا تعلوها حكمة ، و « اللطيف الخبير » وسياق شرح هاتين الصفتين في الآية التالية . وما من شك في أن من يعلم علم اليقين أن الله مطلع على سره وجهه مُخِص عليه جميع ما كسب واكتسب من أعمال لا بد أن ينيب إليه ويتعلق بغفرانه وإحسانه .

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

معنى الآية ألا يعلم السر والجهر من خلق بحكمته جميع الأشياء ومن

أحاط علمه بالسر والجهر والخبى والظاهر . وهو وحده (اللطيف) الذى يعلم دقائق الأشياء حتى ليعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، وقال الغزالي إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دَقَّ منها وما لَطَّفَ ثم يسلك فى إيصالها إلى عباده الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل واللفظ فى العلم تَمَّ معنى اللُّطْف ، ولا يتصور كمال ذلك فى العلم والفعل إلا لله تعالى . و (الخبير) العالم ببواطن الأشياء وظواهرها الذى لا يَعزُبُ عنه شيء فى ملكه الكونى ولا فى ملكوته الغيبى ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها . وهو بمعنى العليم غير أنه يختص بالخفايا الباطنة ، فالعلم بها يسمى خيرة ، ويقال لصاحبها خبير . ومن طريف ما قاله بعض المفسرين أن من سنة الله حفظ كل لطيفة فى طى كل كثيفة كصيانة النفائس فى الأشياء المجهولة ، ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر ، والصدف معدن الدر ، ودود القز معدن الحرير ، وذباب النحل معدن الشهد ، وبالمثل القلب جعله موضع الإيمان ومعدن معرفته ومحبته . وكان الله جلَّ شأنه فى ذكره اللطيف الذى يتضمن معنى الرأفة مع ذكره الخبرة المتضمنة لعلمه بخفايا الأمور أراد أن يشير إلى رحمته بالعباد وأنه يسلك سبيل الرفق بهم حتى حين يعصونه ويحادونه ، فهو دائم اللطف بهم يجبر الكسير وييسر العسير ، ولا يرد سائله ، ولا يونس آمله .

وتصور سورة لقمان لطف الله وخبرته وعلمه بكل خفى إذ يقول لقمان لابنه : (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) ، فحبة الخردل مع صغرها

إذا كانت في أخفى موضع كجوف صخرة أو حيث كانت في عالم السموات العلوى أو في عالم الأرض السفلى يأت بها الله اللطيف باستخراجها ، الخبير بمستقرها . وبهذه الخبرة وبذلك اللطف وما يتصل بهما من علمه خلّق العالم وقَدَّر كل شيء فيه بحكمته ، حتى أرزاق الناس ، ولذلك كان يتكرر معها أن الله لطيف أو أنه خبير ، فكل شيء في العالم وُضع بلطف وخبرة وحكمة . ومن الأحاديث التي تصور علم الله بدقائق الأمور ولطفه بخلقه ما رواه الرسول عليه السلام عن ربه في حديث قدسى مؤداه أن الله يدبر لعباده لعلمه بقلوبهم فقرا وغنى وسعادة وشقاء وإيماناً وضلالاً بمقتضى علمه وخبرته وهما خبرة وعلم يتضمنان لطفاً وحكمة بالغين . ولو تدبرنا ما قسمه الله بين الناس من حظوظ ظهرت فيها حكمته وتجلت خبرته وأظنه بعباده حتى لنؤمن بأن كل إنسان قد نال ما يصلح به أمره .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا
وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) :

معنى (ذُلُولًا) سهلة لينة منقادة غاية الانقياد بحيث يستطيع الناس أن يعيشوا فيها ويستغلواها ويستثمروها . وهو بيان لنعمة الله على الإنسان ، فقد مهد له الأرض بغاية الحكمة ، فلم يجعلها صلبة خشنة يعسر مشيه عليها كما يعسر حفرها وشقها للغرس والبناء ، ولا جعلها في غاية الرخاوة واللين بحيث لا تمسك شيئاً لا بناء ولا إنساناً ولا حيواناً ولا شجراً . ولم يجعلها حارة حرارة شديدة مستمرة بحيث تخنق الإنسان والنبات ،

ولا جعلها باردة شديدة البرودة لا تستطيع الكائنات أن تستقر عليها ، بل جعلها معتدلة أو وسطاً بين البرودة والحرارة والليونة والصلابة لتكون مهاداً للإنسان والكائنات ولتكون بساطاً وفرشاً ومسكناً ومستقراً للبشر يضرب الإنسان فيها معاوله للحرث والزرع وللأبنية الضخام ، وشق له فيها العيون والآبار وجعل خلالها الأنهار وأنبت له فيها الأشجار وأنزل الأمطار وأخرج الثمار ، وقدر له فيها جميع الأقوات . وجعلها قطعاً متجاروة ، فتلك سهلة وأختها حَزْنة تلاصقها ، وهذه منافعها ظاهرة في النبات وغير النبات ، وهذه منافعها باطنة في المعادن وغير المعادن ، وهذه وديان وتلك جبال ، وهذا ماء عذب وذاك ماء ملح ، وبساتين وحدائق ذات بهجة . ولو مُثِلت الأرض والناس عليها في صورة لكان خير صورة لها أمَّ غاذية ، لكل طفل من أطفالها نصيبٌ في أُنْدائها . وكل ذلك بحكمة الله وقدرته وما أَسْبَغَ على الإنسان من مَنَنِ ونعم بتذليله الأرض له وتسخيرها لمنافعه . وأمرُ الله جَلَّ شأنه في الآية بقوله : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) إنما هو للإباحة وفيه إظهار الامتنان ، وقيل هو خبر بلفظ. الأمر أى لكى يمشوا في جوانبها وأطرافها حتى يحيطوا بها وينتفعوا أكبر انتفاع بما فيها ، أى امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذُلُولاً سهلة لا تمتنع عليكم . وأصل معنى المنكب الجانب ، وقال الراغب المنكبُ مجتمع ما بين العَضُد والكُتِف ومنه استُعير للأرض في قوله تعالى : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) كاستعارة الظهر للأرض في قوله عزَّ شأنه في سورة فاطر : (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ). وقال الزمخشري : المشى في مناكبها مثلُ لفرط التذليل ومجاورته الغاية ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنبأه (أبعده) عن أن يطأه الراكب بقدمه

ويعتمد عليه ، فإذا جعلت في التذليل بحيث يُمْتَنَى في مناكبها فقد صارت نهاية في الانقياد والطاعة . وقيل مناكب الأرض جبالها وآكامها ، والمعنى إني سهلت عليكم المشى في مناكبها وهي أبعد أجزاءها عن التذليل فكيف بسائر أجزائها فإنها أكثر تذليلاً وانقياداً . وقيل المناكب الطرق والفجاج كقوله تعالى في سورة نوح : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) . والأولى أن نأخذ بالمعنى الأول لأنه أعم ، ودائماً يقدم المعنى العام في تفسير الذكر الحكيم على المعنى الخاص لشموله . (وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) الأمر هنا أيضاً للإباحة ، ويرى بعض المفسرين إبقاء المعنى على ظاهره أى كلوا من نعم الله تعالى من الحبوب والثمار والفواكه ، وقيل إن الأكل في الآية مجاز عن الالتماس ، أى انتفعوا بما أنعم به الله والتمسوا فيه رزقكم . واستدل بعض السابقين بالآية على الندب للتسبب والكسب ، وفي الحديث إن الله يحب العبد المؤمن المحترف ، ولا ينافي ذلك التوكل على الله الذي ندب إليه القرآن بمثل قوله تعالى في سورة آل عمران : (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) وَيُرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ بِقَوْمٍ فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَقَالُوا : الْمُتَوَكِّلُونَ ، ولاحظ أنهم قعود لا يعملون ، فقال : بل أَنْتُمْ الْمُتَأَكِّلُونَ (الذين يأكلون عالة على الناس) إنما المتوكل رجلٌ أَلْتَقَى حَبَّهُ فِي بطنِ الْأَرْضِ وَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فالتوكل على الله لا يكون بترك العمل والسبب ، ومن ظن ذلك فقد خالف سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم وسنة أصحابه ، بل لقد خالف الله عزَّ وجلَّ في مثل قوله في سورة الأنفال : (فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) والغنيمة في الحرب . شاق واكتساب . وقد أجمع عامة الفقهاء على أن التوكل لا يكون بترك الأَسْبَابِ .

والركون إلى الله بل لا بد من الأسباب والسعي في الأرض مع الثقة بالله والاعتماد عليه . وقد يُظنّ أن إثبات الأسباب يقدرح في التوكل ، ولكن العكس هو الصحيح فنفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ، فإن التوكل إنما هو رسوخ الاعتماد على الله مع السعي في الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وجهاد في سبيل الله واستخدام ما تقتضيه سنن المعاش والحياة من عمل وكفاح . (وإليه النشور) أى المرجع بعد البعث فبالغوا في شكر نعمه التي ترونها رأى العين في تذليل الأرض وتمكينكم منها وبثّ الرزق فيها . وقيل بل المعنى : إن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، وخلق الأرض لكم ذلولا ، قادرٌ على أن ينشركم ويحييكم بعد موتكم ، فانتهوا عن الكفر والمعاصى فى السر والجهر قبل أن يحل بكم عذاب النار فى دار البوار .

(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ) :

قيل المراد بمن فى السماء الملائكة الموكلون بتدبير الكون ، وقيل : بل جبريل لأنه الملك الموكل بالخسف ، واتفق أئمة السلف على أن المراد الله جلّ شأنه كما يدل على ذلك ظاهر الآية ، وقالوا إن الكلام على تأويل من فى السماء أمره وقضاؤه . وقالوا أيضاً إنه خصّ السماء بالذكر وملكه أعم منها إذ يشمل الكون كله تنبيهاً على أن الإله الحقيقى هو الذى تنفذ قدرته فى السماء لا آلهتهم الأرضية . وقيل إن الكلام على تقدير مضاف أى أأمنتم خالق من فى السماء . وقيل إن (فى) فى كلمة (فى السماء) بمعنى فوق ، حتى لا تفهم

العبارة على ظاهرها وما قد يظنه المجسّم من أن السماء تحيط. بالله من جميع الجوانب ، وكأنه يحلُّ في حيز مكاني . ونفس كلمة فوق لا تحل المشكلة ، لأنها قد تدل على فوقية الجهة أو علوها مما يدخل في صفات الأجسام ، وهو ما قالت به المجسمة أو المشبهة ، وهم فرقة ضالّة . وذهب فريق من السلف إلى أن مثل هذه الآية في القرآن من المتشابه الذي نزلت فيه آية آل عمران : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) . وهم يؤمنون بالمعنى الذي أرادته الآية مع كمال التنزيه لله عن الجسمية وما يتصل بها ، ومثلها الآيات الواردة في القرآن التي قد يفيد ظاهرها التشبيه مثل آية سورة الحديد : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) وهم بذلك يكفون أنفسهم عن التأويل ويُجرون ظواهر الآيات على مواردها مفسّرين معانيها إلى الله عزَّ وجلَّ ، ويروى عن الإمام مالك أن رجلاً سأله عن قوله تعالى في سورة طه : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فأجابته : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخذ برأى الإمام مالك في مثل هذه الآية الشافعي وابن حنبل . وذهب آخرون وفي مقدمتهم المعتزلة إلى تأويل مثل هذه الآية ، لأن القرآن نزل بلغة العرب وفيها الحقيقة والمجاز ، وما دام من الممكن أن يوجه معنى آية على المجاز فلا داعي لعدم تأويلها ، بل لعل تأويلها عندهم يصبح واجباً ، فمثلا آية سورة الحديد يستقرئون ما يشبهها عند العرب في

مجرى كلامهم ، فيجدونهم كما قال الزمخشري يقولون : « استوى فلان على العرش » يريدون ملك وحكم وإن لم يقعد على عرش ألبتة ، لدلالته القوية على المعنى كما قالوا يد فلان مبسوطة وبده مغلولة بمعنى أنه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين ، يقول الزمخشري ومنه قول الله عزَّ وجلَّ : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) أى قالوا هو بخيل ، وردَّ القرآن بأن الله كريم بدون تصور يد حقيقية ولا غلَّ (قبض) ولا بسط . ويمكن توجيه الآية في السورة بأنه ليس المراد بكون الله في السماء أو فوق السماء ظرفية الجهة أو فوقية الجهة ، إنما المراد استعلاء القدرة وفوقيتها ، كما جاء في سورة الزخرف : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) . وجوز الزمخشري أن تكون الظرفية في الآية باعتبار زعم العرب أنه تعالى في السماء أى آمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان ، وردَّ الألوسي هذا الرأى وقال إنه لا يناسب بناء الكلام في مثل هذا المقام . والآية كما قدمنا واضحة ، وهى لا تريد سوى بيان قدرة الله وأنها تشمل الكون وأنه يستطيع أن يسلط على الكفار عذابه من السماء أو من الأرض كما تدل على ذلك بقية الآية ، وكما قال في سورة الأنعام : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) فيرسل عليهم طوفاناً من السماء كما أرسل على قوم نوح ، أو يرسل عليهم (رِيحًا صَرْصَرًا) شديدة البرد والصوت تدقُّ أعناقهم كما أرسل على عاد قوم هود ، أو يرسل عليهم صيحة من السماء لا تبقئ منهم ولا تذر كما أرسل على ثمود ، أو يخسف بهم الأرض ويجعل عاليها سافلها كما صنع بقارون فلم تُغنه قوته ولا ماله

ولا رجاله فيما نزل به وبداره من دمار ، وكان الله تبارك وتعالى يقول للكفار :
لقد جعلت لكم الأرض ذلولاً تمشون في جوانبها وتنعمون بطيباتها ، فكان
جديراً بكم أن تنيبوا إلى لا أن تكفروا نعمتي عليكم ، ولا تعجبكم كثرتكم
ولا جموعكم ولا قوتكم فإنكم لن تعجزوا ربَّ السموات والأرض ، ولو شاء
لخسف بكم دياركم كما خسف بالباغين من قبلكم ديارهم ، فإذا الأرض من
تحتكم (تمور) أى تضطرب وتدور وترتج ارتجاجاً يأتى عليكم كأن لم
تكونوا شيئاً مذكوراً .

(أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ
كَيْفَ نَذِيرِ) :

. واضح أن قوله جلَّ شأنه في هذه الآية (مَنْ فِي السَّمَاءِ) إنما هو كسابقتها
لا يراد به وصف العلو المكاني وإنما يراد وصف العلو المعنوي وما يتصل به من
القدرة والقهر والعظمة ، مع تنزيهه كما مر بنا عن الأماكن والجهات والحدود
وغير ذلك من صفات الأجسام التي تشمل فيما تشمل العلو المادي والدنو
الحسي . أما اتجاه الناس في الدعاء إلى السماء ورفعهم الأيدي إليها
فلأنها مهبط الوحي ومحل الملائكة الأطهار وقبله الدعاء كما جعلت الكعبة
قبلة الصلاة . وقد كان الله في أزله قبل خلق السموات والأرض وقبل خلق
المكان والزمان ، أى أنه لا مكان له ولا زمان ، وهو الآن على ما عليه كان ،
والسما والأرض بالقياس إليه سيان . وكلمة (أَمْ) تفيد الإضراب ، كأن
الله جلَّ شأنه أضرب عن الوعيد بالخسف إلى الوعيد بإرسال حاصب على
الكفار ، وقد ذكر الخسف أولاً لمناسبة ذكره الأرض قبل ذلك وجعلها ذلولاً

للإنسان يمشى في مناكبها ، ثم ذكر الحاصب ثانياً في مقابلة الامتنان الذى ذكره بعد تذليل الأرض بإسداء الرزق إلى الإنسان ، وقد قال في سورة الذاريات : (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) والمراد بالرزق في هذه الآية ما ينزل من السماء من مطر ومن ثلج ينبت بهما الزرع ويحيا الناس ، وكأنه جعل الحاصب في مقابلة الرزق عامة . والحاصب حجارة من السماء أو ريح فيها حجارة وحصباء وهى الحصا الصغار . وقد ذكر الله في القرآن مراراً أنه أرسل الحاصب على قوم لوط حين تمادوا في غيِّهم وفيما كانوا يأتون من الفحشاء ، غير مباليين بما تهددهم به لوط عليه السلام من عذاب الله ، فاتاهم العذاب صُبْحاً ، إذ أمطرهم السماء الحاصب وخسفت بهم الأرض وجعل عاليها سافلها على نحو ما صور ذلك الله في سورتي هود والحجر . وحاصب آخر رآته قريش تحت أعينها في ديارها لم يمض عليه زمن طويل ، إذ رآه الجيل السابق للرسول عليه السلام حين ملكت الحبشة اليمن وسؤل الشيطان لوالها عليها أبرهة أن يبنى كعبة لليمنيين في ديارهم حتى لا يحجوا في الجاهلية إلى مكة وكعبتها وحتى لا تكون هناك صلة بينهم وبين إخوانهم الشماليين تُفضى إلى لقاء وتناصر ضد الحبشة . ولم يكتف بذلك فقد جهز جيشاً بالعدد والسلاح ، وغزاه به مكة يريد هدم كعبتها ، وصحب معه بعض النبله لتخويف المكيين وإرهابهم ، وسمع المكيون بالجيش واقترابه من بلدتهم فهرعوا إلى الجبال وتركوا البيت لربه يحميه ، وحماه الله ، فأرسل على القائد الحبشى وجيشه جماعات من الطير كانت ترميهم بحجارة من سجيلٍ كأنها كانت مهيأة لهم وتنتظر وصولهم إلى مكة ليصبها الله على رؤوسهم وأجسادهم ، فإذا الجدرى يتفشى فيهم كما أجمع على ذلك

المفسرون وأصحاب الأخبار ، وهلك الجيش الجرار وأصبح أثراً بعد عين .
والله ينذر كفار قريش أن يصيبهم ما أصاب جيش الأحباش المعتدين
منذ عهد قريب وما أصاب قوم لوط منذ عهد بعيد ، وقد خصَّ حادثة
الجيش الحبشي والقبيل الذي كان معه بسورة قصيرة إذ يقول جَلُّ شَأْنِهِ :
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَأْكُولٍ) ، والعصف غلاف حبات القمح وهي في سنابلها ، شبه الله تقطع
أوصال هؤلاء الجنود المغيرين بتفريق أجزاء هذا الغلاف ، إذ أصبحوا
يتساقطون وتتساقط. أجزاءهم وأشلائهم وكأنهم تَبْنٌ تعصفه الرياح
يميناً وشمالاً . وفي ذلك عظة أى عظة للكفار كي ينتهوا عن كفرهم وغيهم ،
حتى لا يرسل الله عليهم حاصباً من السماء ، وها هم أولاء أصحاب القبيل
على ضخامته وضخامة جيشهم أهلكتهم الله بأضعف خلق من كائنته ، وهو
الطير . ولعل الإهلاك كان بضرب منه ضعيف حمل إلى جيش المعتدين
جراثيم الجدري ، فإذا هم صرعى هالكون ، ويقول لهم مهدداً : (فَسَتَعْلَمُونَ
كَيْفَ نَذِيرِ) أى إنذارى عندما يقع بكم النكال وينزل العذاب ويحق
العقاب .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

التفت الله في هذه الآية من الخطاب إلى الغيبة لإيماء إلى إعراضه عن
الكفار ، وإنه ليهدهم ويتوعددهم حتى لا يحلَّ بهم الهلاك كما حلَّ على
من كذبوا الرسل من قبلهم ، ومعنى (نَكِيرِ) إنكارى عليهم بإنزال العقاب

الشديد . ويذكر القرآن مراراً وتكراراً الأمم التي كذبت الرسل وما حاق بها من عذاب ، وفي ذلك يقول جلّ شأنه في سورة العنكبوت : (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) فأما من أُرِيسِلَ عليهم الحاصب فهم قوم لوط وجيش أبرهة الحبشي ، ويمكن أن نلحق بهم عاداً قوم هود ، أهلكوا بالصواعق وبريح باردة عاتية كما قال الله في سورة القمر : (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرْنَا إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) أي منقطع من منابته ساقط. على الأرض صريع الموت والهلاك . وأما من أخذته الصيحة فمثل ثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجرَ في شمالي الحجاز ، وعبثاً حاول صالح عليه السلام أن يدخلهم في دين الله وطاعته فأبوا وبغوا ، فأنزل الله بهم عقابه كما يقول في سورة هود : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) ومثلهم أهل مدين قوم شعيب وكانوا كفاراً ويبخسون الكيل والوزن فدعاهم إلى التوحيد وإلى الأمانة فرفضوا دعوته وتمادوا في غيهم وخيانتهم ، فنزل بهم عقاب ربهم كما قال في سورة هود : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) صرعى لا حراك بهم . وأُرِيسِلَ شعيب أيضاً إلى أصحاب الأيكة بالقرب من قريته مدين ، والأيكة الغيضة وهي الشجر اللتف ، فكذبوه بدورهم ، كما قال الله في سورة الشعراء : (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ

يَوْمِ الظُّلَّةِ) إذ أَظْلَتَهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ سَمُومٍ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهَا بَاباً مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ فَاحْتَرَقُوا كَمَا يَحْتَرِقُ الْجِرَادُ فِي النَّارِ . وَأَمَّا مَنْ أَخَذَهُ الْخَسْفُ فَقَارُونَ كَمَا مَرَّ بِنَا فِي آيَةِ الْخَسْفِ السَّالِفَةِ ، وَمِثْلُ أَصْحَابِ الرَّسِّ وَهِيَ بَثْرٌ كَانَتْ لَبْقِيَةً مِنْ ثَمُودَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ اللَّهُ رَسُولًا ، وَقِيلَ إِنَّهُ صَاحِبُ سُورَةِ يَسَّ الَّذِي قَالَ : (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) فَحَادُّوهُ وَقَتْلُوهُ وَرَمَوْهُ بِالْبِثْرِ ، فَخَسَفَ اللَّهُ الْأَرْضَ بِهِمْ فَهَلَكُوا جَمِيعًا ، وَقِيلَ : بَلْ أَظْلَتَهُمْ سَحَابَةٌ سُودَاءٌ فَأَحْرَقَتْهُمْ . وَأَمَّا مَنْ أَخَذَهُ الْغَرَقُ فَتَقَوْمُ نُوحٍ ، إِذْ أَخَذَهُمْ طُوفَانٌ مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فَأَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ كَمَا يَقُولُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ) وَمِثْلُ قَوْمِ نُوحٍ قَوْمُ فِرْعَوْنَ عُدُّبُوا بِالْغَرَقِ جَزَاءً لَطْفِغَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ . وَلَمْ يَظْلَمْ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ، بَلْ هُمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَزَجَّوْا بِهَا فِي هَذَا الْعِقَابِ الشَّدِيدِ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ احذروا أَنْ يَقَعَ بِكُمْ عَذَابُ كَعَذَابِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الَّتِي كَذَبَتْ بِالرَّسْلِ ، فَحَلَّ بِهَا وَعِيدِي وَنَزَلَ انْتِقَامِي وَذَاقَتْ عِقَابِي ، وَإِنَّهُ لِحَرِيٍّ بِكُمْ أَنْ تَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى لَا تَأْخُذَكُمْ صِنُوفُ النَّكَالِ ، وَحَتَّى تَنْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْمَهَالِكِ الْمُرِيدَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . وَفِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُ : لَا تَحْزَنْ بِتَكْذِيبِ الْكُفَّارِ لَكَ ، لِأَنَّكَ لَسْتَ أَوَّلَ رَسُولٍ كَذَبَهُ قَوْمُهُ ، فَقَدْ كُذِّبَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّسْلِ وَصَبِرُوا عَلَى أَذَى أَقْوَامِهِمْ ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُنَّ

إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

معنى (أو لم يروا إلى) أو لم يعلموا أى قد علموا علماً يقيناً شأن الطير التي تسبح أمام أعينهم في السماء ، و (صافآت) من الصف وهو كبر الشئ على خط. مستقيم ، ومفعول (صافآت وَيَقْبِضْنَ) محذوف أى أجنحتهن ، والطير حين تبسط. أجنحتها للطيران تصفُّ قوادمها صَفًّا . وقوادم الطير ريشه الطويل وهي عشر في كل جناح ، وهي تقبض هذه القوادم حين تضم أجنحتها ، وتضرب بها جنوبها حيناً فحيناً للاستظهار على التحرك ، ولم يقل تعالى شأنه قابضات كما قال (صافآت) وإنما قال (يَقْبِضْنَ) لأن طيران الطير في الهواء كسباحة الإنسان في الماء ، فكما أن الأصل في السباحة مَدَّ الأطراف وبسطها فكذلك الأصل في الطيران صَفَّ الأجنحة ومدَّها ، أما قبض الأجنحة فيكون تارة بعد تارة ، ولذلك جرى معها بالفعل (يَقْبِضْنَ) للدلالة على أن هذا القبض يتجدد كرة بعد أخرى وحيناً إثر حين . والله جلَّ شأنه بصور آية من آياته الكونية للدلالة على قدرته وإبداعه في خلقه ، فتلك الطير تسبح في الهواء وتستقر فيه كأنه مسكنها تأوى إليه دون حاجة إلى أى شئ يساعدها على البقاء فيه . وحتى أجنحتها فإنها لا تحتاج في سبوحها وطيرانها إلى تحريكها . ومن حين إلى حين تحركها وتقبضها حين تفكر في الهبوط أو تفكر في الصعود ، صنع الله الذي أحسن كل شئ خلقه وأتاح له من القدرة ما يمكنه من النهوض للحياة ، فهذا يمشى على وجه الأرض ، أو يزحف ، أو يسبح في مياهها ، وذلك يطير في جوها حتى إنه ليطير أحياناً بدون زغب ولا ريش كالخفاش . وقد يكون ضخماً الجثة ومع ذلك يطير ،

وكان الهواء وكثره ومستقره ، ومهما هبط. إلى الأرض فإنه يطير بما أودع الله أجنحته من القدرة ومن التعادل مما يهبها الطيران والسباحة في الأجواء . ولو أمسكت بطير فقصصت أحد جناحيه ما استطاع الطيران لأن الجناحين فقدتا تعادلتهما ، أما إذا قصصتهما جميعاً كان أقوى على الطيران وإن لم يبعد ، لأنه إذا كان مقصوصاً من جانب واحد اختلف خلقه واضطرب تركيبه ولم يعتدل وزنه وأصبح أحد جناحيه هوائياً والآخر أرضياً . والطير أشكال كثيرة منها الوحشي والأليف ، ومنها الجميل المنظر الذي يروق ، ومنها ما يغنى ومنها ما يصيح ، ومنها طويل العنق ومنها طويل المنقار والمخالب، مع اختلاف الريش وتنوع الألوان وتعارضها البديعة . عجائب تدل على ما وراها من قدرة الله الباهرة في الخلق والتركيب ، وأن كل شيء في الوجود ينقاد إليه ، وكان لكل شيء زمناً بيده ، الإنسان في الأرض والملائكة والأفلاك في السماء والطير في الهواء ، يقول في سورة النور : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) فكل من في السموات من الملائكة يسبغ له طوعاً وكل من في الأرض يسبغ له اختياراً ، وتسبغ له الطير تسخييراً وانقياداً دالة على حكمته ، إذ هي منقادة له طائعة بخلقها وبصرفها كما يشاء ، ولسان حالها ناطق بتنزيهه الله عن كل ما لا يليق به ، شاهد بكمال قدرته ، وأنه ليس كمثل شيء . وما من طائر بل ما من جناح طائر بل ما من جناح بعوضة تتأمل فيه حتى ترى من خفيايات القدرة الإلهية في خلقه ما يشتد معه تعجبك . واستنبط بعض المفسرين أن في ذكر الطير بالآية مع ذكر الحاصب قبلها الذي أهلك الله به أصحاب الفيل تذكيراً من الله لقريش بتلك القصة

حتى يتعظوا أو ينتهوا عما هم فيه من الغي والضلال ، وواضح أن الآية إنما سبقت للدلالة على قدرة الله ورحمته في الخلق إذ قال : (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) وكأنه بقدرته خلق الطير ، وبرحمته هيأها للحركة والطيران في الهواء ، حتى لكان لكل ريشة في جناح قوة في حمل ما يليها من الجسم ، وبمجموع ما لها ولأخواتها من القوى وحظوظها أو أنصبتها تطير ، رحمة من الله بالطير وممة ، وهي رحمة تعم كل ما يخلقه . وحرى بالكفار الآثمين أن يتدبروها ويفزعوا إلى ربهم ، (إنه بكل شئ بصير) والمراد بالبصر هنا دقه العلم الذي به تنكشف الأشياء وتُعرف كيفية تدبير المخلوقات وإبداع مصنوعات طيراً وغير طير . وفي ذلك إشارة إلى دوام مراقبة الله للإنسان وأن على كل شخص أن يكون دقيق المحاسبة لنفسه فعين الله من ورائه لا تخفى عليها خافية من أمره ، وإنه لجدير بالكفار أن يتدبروا في صنع الله العجيب وما بثَّ فيه من رحمة ولو نظروا في أنفسهم لوجدوا في كل جارية من جوارحهم نعمة ينبغي أن تدفعهم لا إلى معصية الله بل إلى طاعته لكثرة ما يرون في الطير وغير الطير من البرهان عليه والدلالة .

(أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
 إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) :

تبكيت للكفار وتوبيخ على تركهم التأمل في الطير وغيرها من الكائنات الدالة على غرائب الخلق الإلهي وعجائبه التي كان ينبغي أن تردهم إلى سواء السبيل سريعاً ، فينفضوا عنهم الكفر والشرك ، قبل أن يقع بهم الخسف وقبل أن تنزل عليهم حجارة من السماء تأتي عليهم كما أنت على كثيرين

من قبلهم ، ولن يعصمهم من ذلك عاصم ولن ينصرهم من دون الله جند ، بل ستدور عليهم الدوائر ولا ناصر ولا عاصم . ويتساءل الله جَلَّ شأنه عن الجند الذين سينصرونهم من دونه تهكماً وتبكيئاً . إنه ليس لهم جند ينصرونهم ، وهل في الأرض والسماء من جند سوى جنده كما قال في سورة الفتح : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، فهو صاحب الجنود المجنّدة في الأرض وفي السموات ، أو بعبارة أخرى هو وحده المدبر لأمر المخلوقات بعزته وقدرته ، ومن جنوده ملائكة الرحمة والعذاب ، وإن شاء سلّط الأَخيرين عليهم فكبّوا على رؤسهم الحجارة والحصباء ، وخسفوا بهم وبدورهم وكل ما يملكون الأرض . وقد يكون الله أشار بجنود الأرض إلى المؤمنين الذين سينصرون دينه ويُعزّونه ويجعلون كلمته هي العليا وكلمة كفار قريش السفلى . أو لعل آية سورة الفتح تمثيل بصور به الله أن كل ما في السموات والأرض بمنزلة الجند لو شاء لانتصر به كما تنتصر الأمم بجيوشها وجنودها فأين تغفرون من ربكم وقد أخذت جنوده عليكم كلّ الدروب وكل المسالك ولم يبق إلا الاستسلام وإلا فالموت الزوام الذي ينتظركم ولن تستطيعوا إفلاتاً منه ولا خلاصاً ، إذ لا حامي يحميكم من الله ولا ناصر منه ينصركم ، إنه العزيز القهار الذي ينفرد بالسلطان في السموات والأرض . وباطل ما تزعمونه عن آلهتكم و عما تؤمنون به من الكواكب ومن الأوثان والأصنام تظنون أنها تنفعكم وهي لا تنفع ولا تضر ولا تملك من أمرها شيئاً فضلاً عن أن تملك من أمركم ، كما قال جَلَّ ذكره في سورة يس : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ) فجندهم الذين تشير إليهم الآية هم آلهتهم كما صوّرت ذلك آية سورة يس وهي آلهة لا قدرة لها ولا حول ولا طول ، ولا تستطيع أن تقدم لهم أي عون

حين ينزل بهم عذاب ، وإنهم ليحضرونه ولا يستطيعون نصرهم ولا أن يدفعوا شيئاً ، كما قال الله لهم في سورة الأنبياء موبخاً مبكّثاً : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) إنهم آلهة عاجزون لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ويردّوا ما ينزل بهم فضلا عن أن تمنعكم منا وتردّوا عنكم ما يحيق بكم من العذاب ، وإنهم لا يُصْحَبُونَ منا بأى نصر، بل يصحبهم الخذلان والخسران المبين ، فكيف يقع في خواطرهم أنها تستطيع تأييدهم ونصرهم . والله مع تهديده ووعيده لكفار قريش يصف نفسه بأنّه الرحمن حتى لا ييأسوا وحتى يفرغوا إلى رحمته التي تحيط . بجميع الكائنات والمخلوقات والتي تغلب على غضبه وانتقامه ، وكأنّه يقول لهم إن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يفتح لكم باب رحمتي فلا تغلقوه بكفركم وشرككم ، فتحرموا من إنعامي وإحساني ويحقّ عليكم عذابي ، وسارعوا إلى مغفرتي وأنبيوا إليّ وأطيعوني فإن كل ما في السموات والأرض جند من جنودي وإن نشأ نزل بكم عذاباً فلا منقذ ولا مغيث ولا معين . و (إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) أى ما هم فيما يزعمون من نصرة آلهتهم لهم وأنها تحفظهم من الكوارث والنوازل وأنها تنفعهم في قضاء حاجاتهم وأنها تردّ عنهم بأس الله ونقمته وعذابه ، ما هم فيما يزعمون من ذلك كله إلا في غرور أئيم وضلال عظيم ، إذ يظنون ظناً خاطئاً أنه لن يكون هناك معاد ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب ولا ثواب .

(أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُرْوٍ وَغُورٍ) :

مغنى الآية : بل من هذا الذى يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ويرزقكم

في غُدُوِّكُمْ ورواحكم إن أمسك الله رزقه عنكم ؟ أترزقكم آلِهتكم التي
 تعتصمون بها شيئاً ؟ إنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فضلاً عن أن تملك
 لكم . وكان الله جلَّ ثناؤه يقول إنهم مع كل ما يرون من آيات الحق
 يلجؤون ويمادون في العتوِّ والطغيان والعداوة وينفرون من الحق ويعرضون عنه
 إعراضاً شديداً . وحتى لو كان الرزق موجوداً وفي متناول أيديهم وطعم منه
 أحدهم وأصبحت اللقمة في فمه وأمسك الله عنه قدرة الابتلاع لعجز أهل
 السموات والأرض عن أن يعيدوا إليه تلك القدرة . إن كل شيء بيد الله
 رزقا وغير رزق وكان ينبغي أن ينبؤوا إليه ويدخلوا في دينه ، ولكن عنادهم
 أعماهم فلم يدعوا للحق وهو تحت أبصارهم ولم يؤدوا لربهم ما يستحق
 من شكر وعرفان بما يرزقهم به صباح مساء . وهو يمزج ذلك بتهديبهم
 وبيان قدرته التي صورها في الآيات السالفة كي يرفعوا ويزدجروا ويشوبوا إلى
 رشدهم ويعرفوا أنه الرزاق القوي الشديد القوة الذي يستطيع أن يعصف
 بهم ويمزقهم شرممق ، وإنه ليصف نفسه بذلك مراراً كما قال في سورة
 الذاريات : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ، فلا رازق سواه ، إنه
 هو الذي يهب الأرزاق الظاهرة من الأقوات والأطعمة مما يخص الأبدان
 كما يهب الأرزاق الباطنة من الإيمان والتقوى مما يخص القلوب والأفئدة ،
 وافرقت بين النوعين ، فالأولى قصيرة الأمد والثانية حياة الأبد . وفي الآية ما
 يدل على أن الله وحده الرزاق وألا ينتظر الإنسان الرزق ولا يرجوه إلا منه .
 ويروى أن شخصاً سأل بعض النُّسَّاك : من أين تأكل ؟ فقال : من خزانته ،
 يشير إلى قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) ، فقال الشخص
 للناسك مستنكراً : ينزل عليك الخبز من السماء ؟ فأجابته الناسك : لو لم

تكن الأرض له لكان يلقيه من السماء . فقال السائل : إنما أنتم قوم ليس عندكم إلا الكلام ، فقال الناسك : لم ينزل من السماء إلا الكلام ، فقال وقد لزمته الحجة : أنا لا أقوى على مجادلتك ، فقال الناسك : لأن الباطل لا يقوم مع الحق . والناسك يشير بكلمة الأرض إلى ما مر بنا من أن الإنسان يتوكل ويعمل ويلقى الحب في الأرض الطيبة لينتظر من ربه الثمرة المرجوة . والرزق عند أهل السنة يشمل الحلال والحرام خلافاً للمعتزلة القائلين بأن الرزق هو الحلال وحده ، أما الحرام فليس برزق ، لأنه لا يجوز تملكه ورتبوا على ذلك أن الله لا يرزق الحرام إنما يرزق الحلال فقط . فلو نشأ صبي مع لصوص ثم أصبح لصاً ، ولم يطعم إلا مما نهبه ونهبه معهم إلى أن مات فإن الله في رأيهم لم يرزقه شيئاً ، وقال أهل السنة إن الرزق هو الغذاء مطلقاً حلالاً كان أو حراماً ، واستدلوا على ذلك بقوله جل شأنه في سورة فاطر : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) فكل شيء من رزقه ، وإنه ليرزق الطير تغدو خميصاً (جائعة) وتروح بطاناً (ممتلئة طعاماً) كما يرزق الحيوانات والدواب ، كما قال في سورة هود : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ويقول تبارك وتعالى : (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) ، وقد يكون في ذكر الغفران في الآية الأخيرة ما يشير إلى أن الرزق يكون فيه الحلال والحرام الذي يغفره الله بفضله . والرزق بذلك يشمل الحلال وهو المأذون للإنسان به ، والحرام وهو غير المأذون له في تناوله ، والله كما جاء في سورة الشورى وفي مواضع مختلفة من الذكر الحكيم : (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) فينبغي أن يرضى المؤمن برزقه . وليس ضيق الرزق هواناً ولا سعته تكريماً ، ولو كان

الناس سواء في الرزق لتعطلت الحياة ولم تختلف وجوه الأعمال فيها ؛ وانظر في رغيف الخبز وما يحتاج إليه من زارع لقمحه وحاصد وطاحن ونخبز ، وكذلك كل ما يحتاج إليه الناس من الارتفاق في أمورهم ومما هو قوت وقوام للأمم في شؤون الاقتصاد والسياسة وفي العلوم والفنون ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل له نصيبه وحظه من الرزق حسب عمله وحسب جهده وحسب سعيه .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَم مَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

معنى المكب على وجهه منكس الرأس الذي لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله ، فهو لا يأمن من العثور على وجهه والانكباب على رأسه . والسوى المعتدل الذي يبصر الطريق فيأمن من الخبط والعثار على غير هدى . والآية مثل للكافر والمؤمن ، فالكافر يمشى متعثراً لا يأمن الزلل في كل خطوة ، لأنه اختار طريقاً معوجاً يكثر فيه الصعود والانحدار ، فلا يزال يتخبط في كل خطوة لتوعر الطريق وما يملؤه من الاعوجاجات والانحرافات . ومثله ليس أهدي ولا أرشد من المؤمن الذي يؤم مقصده سالماً من التخبط. والعتار في طريق مستقيم منتظم الأجزاء لا انحراف فيه ولا عوج ولا اضطراب ، ومهما أصدع فيه أو انحدر فإنه يمشى سويًا في اعتدال ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، لا يتعثر ولا ينكب على وجهه ، وكأنا نُصبت له على الطريق كله أعلام هدى وهو ما يزال ينتقل من علم إلى علم عن بصيرة ورشاد. ويجوز أن يكون المراد بالمكب الأعمى الذي لا يهتدى إلى الطريق ،

فيعتسفه فلا يزال ينكبُّ على وجهه ، وأنه ليس كالمؤمن السويِّ الصحيح البصر السائر في الطريق المستقيم . ويشهد لهذا المعنى ما جاء في القرآن مراراً من وصف الكفار بأنهم عُميُّ لا يستطيعون أن يهتدوا إلى السبيل النيرة كما قال جلُّ شأنه في سورة البقرة : (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ، والمراد بالختم على القلوب وعلى الأسماع عدم الوعى بالحق سبحانه وبآياته المنزلة وعدم الفهم والانتباه لما يتلوه الرسول ، مما يدعوهم إلى التدبير في الله والإيمان به وبرسله . وبالمثل غشاوة الأبصار فإنهم لا ينظرون بها في ملكوت السموات والأرض نظراً يدفعهم إلى الدخول في الدين الحنيف ، فأصبحوا كأنهم عمى صم لا يفقهون ولا يعقلون . كما قال تعالى في سورة التوبة : (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) وليس معنى الطبع والختم على القلوب والأسماع وجعل الغشاوة على الأبصار أن الله خلقهم على هذا النمط غير مهيين للهداية ، ولكن معناه أن الكفر قد تغلغل في قلوبهم حتى أصبحوا لا يسمعون ولا يفقهون ما يقوله الرسول عليه السلام . كما أصبحوا لا يبصرون آيات الله الكونية ، وبذلك أغلقوا قلوبهم وأصموا آذانهم وأعموا أبصارهم ، وأوضح الله ذلك في سورة الأعراف إذ يقول : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ) ، كأن قلوبهم عليها أكنة وأغطية فهي لا تعي شيئاً مما يتلوه الرسول ، وكان على أعينهم حجاباً غليظاً فهم لا يبصرون سوى آلهتهم وأصنامهم ، وكان في آذانهم وقراً وصمماً . فكلام الرسول لا يدخل أسماعهم ، وإن سقط منه شيء إلى قلوبهم لم يفهموه ولم يتدبروه ، وكانوا وضعوا سداداً بينهم وبين

الرسول عليه السلام ، سداداً على أبصارهم وعلى أسماعهم وقلوبهم فلا ينفذ إليهم أى نور من أنوار الهداية والرشاد ، وكأنه لم يعد عندهم أى استعداد لكى يرشدوا ويهتدوا ، فقد ضلوا الطريق ، بل لقد اختاروا طريقاً كله عوج وانحراف وعثار ، فهم يخبطون فيه نخبط عشواء . ولم يصفهم الله بالعمى والصمم والخم على القلوب فحسب ، بل وصفهم أيضاً بالإنكار وجحود القلب كما قال تعالى فى سورة النحل : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ) فقلوبهم تنكر الإيمان وهو نفس ما عبّر الله عنه بأنه تارة خم عليها وتارة طبع عليها ، فقد طبعت على الكفر ولم يعد من الممكن أن يدخل نوافذها ضوء من الهدى . ووصفهم بالمرض ، فقال فى سورة البقرة : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) وتكرر هذا الوصف كثيراً للمنافقين والكفار ، وهو كناية عما فى قلوبهم من جحد وتكذيب وفساد فى العقيدة . ووصف قلوبهم بالقسوة فقال فى سورة الزمر : (قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ، فقلوبهم قد نُزِعَتْ منها الرحمة ، وإذا ذُكِرَ الله لا تلين بل تزداد وتشدُّ قساوة على قساوة ، وفى الحديث عن الرسول عليه السلام : « قال الله تعالى : اطلبوا الحوائج من السمحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سُخْطى » . ووصفهم بالموت وأنهم أموات غير أحياء ينغمسون فى الظلمات ، كما قال فى سورة الأنعام : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) فقد جعل المؤمن قبل إيمانه مَيِّتًا فأعطاه الحياة والهدى وجعل له نوراً يمشى به بين الناس ، أما المشرك الكافر فيظل فى موته وتظل الظلمات تحيط به من كل جانب ، فلا يعرف كيف يهتدى ولا كيف يسير بل يظل فى موته وفى

قسوة قلبه ومرضه وإنكاره وجحده وعماه وضممه وعدم فقهه وفهمه وتدبره ،
وفي انكبابه على وجهه وعثراته المتوالية عشرة من بعد عشرة .

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) :

أمر من الله عز ذكره لرسوله أشرف الخلق أن يعرف الكفار قبح كفرهم مع اعترافهم بأنه هو الذي أنشأهم إنشاءً بديعاً إذ خلقهم من سلالة من طين ، وكونهم في بطون أمهاتهم عظاماً ولحوماً منضدة وأوصالا وعروقاً وأعصاباً مركبة وصورهم فأحسن صورهم ، وأودع فيهم من الملكات والمشاعر والقدرات ما نيط به جميع حاجاتهم وكمالاتهم . وجعلهم أنموذجاً لجميع مخلوقاته في جمال الصورة وامتداد القامة واعتدال الخلقة وحسن التقويم . ولا يقدح في ذلك قبح بعض الصور أو بعض الخلق بالقياس إلى بعض ، فالجمال في الخلق على مراتب تتفاوت . وليس المفرط في الجمال بأدل على الخالق من ناقصه ، فجمالهما في الدلالة سيان . وربما فاق جمال الخصال والروح جمال الصورة والجسد . بل لا ريب في أن الجمال المعنوي يتفوق على الجمال المادي . وقد خلق الله آدم على صورته أي في الصفات والخصال العليا . ويقول الله إنه جعل للكفار كما جعل للمؤمنين (السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) ومعروف أن السمع والبصر أهم الحواس ، أما (السمع) فيدرك به الإنسان من كل ما يحيط به من الجهات الست في النور وفي الظلام الأصوات والكلام . وهو من النعم الكبرى إذ به يفهم الإنسان عن غيره ويؤدى إلى قلبه ما سمعه ، وكان

السمع رسول أو ترجمان ، وبه وعن طريقه يسمع الناس الرسل ويهتدون بهديهم ويسعدون في دنياهم وآخرتهم ، ولذلك فضّله بعض الأسلاف على البصر . وبه متاع السماع من شدة الطير وغناء البلابل وأنغام الموسيقى ، وكل ذلك سماع ظاهر ، وبجانبه سماع باطن لدلالة الموجودات وما تنطق عنه ألسنتها من وحدانية الله وقدرته البالغة . وأما (الأبصار) فيدرك بها الكفار كما يدرك المؤمنون الأجسام والألوان والهيئات ، ويدركون بها آيات الله في الكون وخلق العجيب وما فيه من دقائق الحكمة الإلهية وعجائب التدبير الرباني وغرائبه ، ويدركون أيضاً بها الجمال المنتشر في الوجود وما يُشعُّه في النفس من المتاع . ثم (الأفئدة) وهي القلوب والعقول كما قال تعالى في سورة الفرقان لرسوله : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) أى قلبك وعقلك وموضع فكرك . وأشار الله مراراً وتكراراً إلى ما بين القلوب والأفئدة والعقول من جهة وبين السمع والبصر من جهة ثانية من علاقات وثيقة إذ قرنها بعضها إلى بعض في كثير من الآيات ، وكأن من لا يستخدم فؤاده وقلبه في التفكير يلغى سمعه وبصره ، إذ هما المنفذان الكبيران لموارد الفكر سواء ما اتصل من ذلك بالشرائع السماوية أو بالآيات الكونية . والقلب موطن المعاني المتصلة بالروح والأخرى المتصلة بالمعرفة والعلم ، وقال بعض الزهاد : للقلب حياة وموت وصحة وسقم ويقظة ونوم ، فحياته الهدى وموته الضلالة وصحته الصفاء ومرضه النسيان ويقظته الذكر ونومه الغفلة . وعدّ كثير من النساك فكر الفؤاد في الكون مثل العبادة بل لعله يفوقها ، حتى زعم بعضهم أنه فوق التسبيح والتهليل وتلاوة القرآن وطول الانتصاب في الصلاة ، وهي مبالغة مسرفة ، فالله قد دعا إلى استخدام القلوب والأفئدة

والنظر في الكون وملكوته لا ليختار الناس ذلك على العبادة ، وإنما ليعبدوه
حق عبادته وليؤمنوا برسوله ورسالته التي تكفل لهم السعادة في الدارين .
ولن يكون لفكر أو نظر في الكون من إشعاعات حقيقية في القلب تستمد
من الهداية الربانية ما لم يقترن النظر والفكر بالعبادة وبأداء الفرائض
الدينية . وبدون ريب من وظائف الأفتدة والقلوب التفكير في ملكوت الله
وجماله وجلاله وكماله ، ولكن ذلك لا يُنسى المرء ما فرض عليه من عبادته
وفرائضه ، بل إن الفرائض والعبادة من شأنهما أن يجعلاه دائماً بسبب من
الله والتفكير فيه وفي الوجود تفكيراً يزدوج فيه عمل الجوارح في العبادة
بعمل القلب وإخلاص المشاعر ، وبذلك تصبح العبادة اشتراكاً بين
الأفتدة والجوارح ، ولا تكون عملاً للأجساد فحسب ، بل تكون أيضاً
عملاً للأفتدة والقلوب . والله جل ثناؤه يطلب من الكفار أن يستخدموا
أبصارهم وأسماعهم وأفئدتهم فيما خلقت له ، وأن يعرفوا لربهم نعمة خلقهم
وإنشأهم وما أنعم به عليهم من حواسهم وقلوبهم ليؤدوا له شكره بإيمانهم به
وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ويسجل عليهم أنهم مع كل ما
أعطاهم من هذه النعم قليلاً ما يشكرون ربهم بحيث ينتفعون بأسماعهم في
الاستماع الحسن لآيات الذكر الحكيم ، كما ينتفعون بأبصارهم في النظر
إلى الكون ومشاهده العجيبة ، وينتفعون أيضاً بأفئدتهم في التفكير في
الوجود انتفاعاً من شأنه أن يسارعوا إلى الدخول في دين الله . وكلمة (قليلاً)
قد تعنى قلة الشكر ، وقد يكون المراد بها في الآية العدم أي أنهم لا
يشكرون الله مع ما أسبغه عليهم من نعم أي شكر لا قليلاً ولا كثيراً ، لما
تمادوا فيه من الغي والكفر والضلال .

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

هذه الآية وما سبقها من الآيات حتى الآية الثالثة من السورة إنما جاءت لإثبات ما قاله الله في الآية الثانية من الابتلاء للناس في الدنيا حتى يرى أيهم أحسن عملاً من صاحبه فيجزيه الجزاء الأوفى . وكان كل الآيات بين هذه الآية والآية الثانية إنما جاءت لإثبات الدلائل على قدرة الله وصحة الحشر والنشر . و (ذراكم) : كثرتم ونشركم على وجه الأرض ، ومن هذا المعنى كلمة الذرية لنسل الناس صغاراً وكباراً . والحشر : البعث والمعاد ، وكأنه يقول إن من خلقكم ابتداءً يستطيع أن يعيد خلقكم مرة ثانية وينشئكم خلقاً جديداً مرة أخرى ، وقد كرر الله هذا المعنى في القرآن كثيراً من مثل قوله في سورة الأنبياء : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) وكان كفار قريش يجادلون الرسول كثيراً في البعث ، وكانوا يقولون أبعدهم أن تفارق أرواحنا أجسادنا ونصير تراباً نرجع إلى الحياة ونبعث من القبور ؟ إننا لانستطيع أن نؤمن بذلك ولا أن نصدق به ؛ ومن أجل هذا ألح القرآن والحديث النبوي على إقناعهم به بمختلف الأدلة والبراهين العقلية ، ومر بنا في سورة الرحمن أن البعث سيكون بالأرواح والأجساد جميعاً ، غير أن بعث الأجساد وكيفية مما استأثر الله بعلمه ، وعلمنا أن نؤمن به لأن ما يقال من تحلل الأجساد لا يحول بين الله وبين إعادة الخلق كما مررنا في السورة آنفة الذكر . وجوز بعض الأسلاف أن تكون الأجساد المبعوثة مخالفة لأجسادنا لما جاء في الأحاديث من أن أهل الجنة يكونون شباباً مُردِّداً وكذلك ما جاء عن النساء سورة الرحمن

من أنهم يكنُّ حورا عيناً أو كالحور العين . ومعروف أن النشأة الأولى أوجدها الله تعالى على غير مثال سابق وورثتها في صور متنوعة كما شاءت إرادته ، وبالمثل يمكن أن تكون النشأة الثانية في مثال آخر غير مثال النشأة الأولى ، وأن يكون مثل قوله تعالى في الآية السالفة : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) يشير إلى أن النشأة الثانية ستكون مثل النشأة الأولى على مثال لم يُسَبَق ، مع كونها محسوسة ، كما يشهد بذلك ظاهر آيات الذكر الحكيم والحديث النبوي ، وليس من الضروري إذن أن تكون الأجساد التي يعيدها الله جَلَّ شأنه هي نفس الأجساد الأولى أو هي نفس أجساد الدنيا الفانية . وفي الحديث أن كل ابن آدم يأكله التراب إلا العَجَب (أى العُضْصُ وهو أسفل الصُّلب آخر فقار الظهر) منه خُلِقَ ، وفيه يُرَكَّبُ ، وكأنه بذر لجسد ابن آدم ، فمنه خُلِقَ ، ومنه يُعاد خلقه ، وقيل إنه قدر ذرة أو خردلة يبقى من البدن ولا يبلى . وقيل إن العَجَب المذكور في هذا الحديث ليس على حقيقته وإنما هو مجاز عن النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة ويمكن أن يقال إنه على نحو ما يتكوَّن شجر كثير الأصول والأغصان من حَبَّات صغيرة تطرح في التراب ، بالمثل جسد الإنسان يتكون من حَبَّة العَجَب الذي لا يقبل البلى ، لأنَّ مادتها وعنصرها . وقيل المراد بالعجب الجوهر الفرد والجزء الذي لا يقبل البلى والفناء ، فتظل له قابلية الصورة الإنسانية ، ويبقيه الله عاصماً له من التغير والبلى في عالم الكون والفساد ، حتى يعيد عليه النشأة الثانية ، فإذا الناس كفاراً أو غير كفار محشورون وإذا هم قيام ينظرون . ودائماً يكرر القرآن على الكفار أن الأرض يموت زرعها وتموت نباتاتها ثم تدب فيها الحياة ثانية ،

وَأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَعْجزَهُ أَنْ يَحْيِيَ الْإِنْسَانَ ثَانِيَةً ، كَمَا يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَهُمُودِهَا وَبَعْدَ أَنْ تَذْوَى فِيهَا الْحَيَاةُ وَيُنْشِبُ الْفَنَاءَ أَظْفَارَهُ ، فَإِذَا هُوَ مَعْرُوضٌ عَلَى رَبِّهِ لِيَلْقَى جَزَاءَهُ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِقَابٍ أَوْ ثَوَابٍ وَمَنْ جَحِيمٌ أَوْ نَعِيمٌ .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

حكى الله في هذه الآية عناد الكفار واستهزاءهم بالرسول عليه السلام وبأصحابه وأنهم يقولون لهم متى الحشر ومتى يوم الساعة ومتى ما تعدون من القيامة ومن العذاب (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فيما تنبئون من مجيء الساعة والحشر . وقد سُمِّيَ يوم الحشر بالساعة تشبيهاً بالساعة الزمنية وهي الجزء القليل من زمن اليوم للدلالة على سرعة الحساب كما قال تعالى في سورة الروم : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) والأولى القيامة والثانية الزمن أو الوقت البسير . وجاء في القرآن وفي الحديث ما يدل على قرب الساعة ففي القرآن أول سورة القمر : . (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب وقد كادت الشمس تغيب ، فقال : « ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم » ويُروى أيضاً أنه خطب يوماً فقال : « بُعثت أنا والسماعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى من أصابعه الشريفة ، أراد بذلك مزيد القرب بين مبعثه والساعة فإن السبابة تقرب من الوسطى طولا ، وعنه بجلية السلام أنه قال : « إن الله جعل الدنيا كلها قليلا ، فما بقي منها قليل من قليل ، ومثل ما بقي مثل الغدير شرب صفوه وبقي كدره » . وللمفسرين كلام طويل في أشراف الساعة وعلاماتها ، وكتبت في ذلك مؤلفات مستقلة ، وهنا وهناك

نجد استدلالات على تعيين قرب زمانها بآثار وأخبار لا تخلو من نظر ، وأفرد السيوطي لذلك رسالة ، زعم فيها أن الساعة تقوم بعد نحو ألف وخمسمائة سنة من الهجرة . وكل ذلك لا يقوم عليه دليل سواء تحديد زمن قيامها أو تحديد علامات هذا القيام ، لأنه جميعه من باب الظن والتخمين ولا يقوم عليه دليل من الوحي والحديث الصحيح . ومن الغريب أنهم حين عرضوا لزمن قيام الساعة عرضوا أيضاً لعمر الدنيا بأسرها ، فمن قائل إنها ثلثمائة وستون ألف سنة ، ومن قائل إن آدم حين نزلها تمثلت له قائلة : يا آدم جئت وقد انقضى شبابي وكان قد انقضى من عمرها ستون ألف سنة ، وقيل : بل عمر الدنيا سبعون ألف سنة ، وقيل : بل ستة وثلاثون ألفاً ، وزعم بعض من يعرفون حساب الجُمَّل أن الساعة تقوم بعد ألف وأربعمائة وسبع سنين . أخذاً من قوله تعالى في سورة الزخرف : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) وقوله في سورة الأعراف : (لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً) بناء على أن عدة حروف كلمة (بَغْتَةً) بحساب الجُمَّل الكبير - كما قَدَّرَ هذا الحاسب - ألف وأربعمائة وسبع . ولا ينبغي لعاقل أن يعتدَّ بمثل هذه الأوهام . وينبغي أن نعرف أن غرض القرآن والحديث من بيان اقتراب يوم الساعة تحذير الناس وحضهم على طاعة ربهم قبل أن تأزف الآزفة . ولا شك أن كل آت يأتى به الغد مهما بَعُدَ حدوثه قريبٌ وإن طالَّت مدته ، وما متاع الحياة الدنيا وما زمنها بالقياس إلى الله إلا قليل . أما تعيين وقت قيام الساعة فقد انفرد الله تعالى بعلمه كما سنذكر الآية التالية وقد أخفاه عن الناس ، حتى تنتظم مصالحهم ، وحتى تجرى حياتهم على وجهها إلى أن يرث الأَرْضَ ومنَّ عليها ، ولا تبقى فيها لكائنات باقية . وإذن فكل ما قيل عن زمن قيام الساعة وعن علاماتها وأماراتها لا ينبغي لأحد أن يهتم به أو يعوّل عليه .

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

أمر للرسول عليه السلام بأن يقول للكفار حين سألوه هازئين عن موعد الساعة بأن العلم بوقته (عند الله) وحده المدبر للكون الذى لا يعزب عن علمه شيء فى السموات ولا فى الأرض ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، فهو الذى يعلم الغيب وكل ما لا تدركه حواسنا . وهو غيب بالقياس إلينا ، أما بالقياس إليه فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ولا فى ضمير الغيب القريب أو البعيد ، بل يحيط بكل الأشياء على السواء الحاضر منها وما يخبئه الغيب ، إذ هو مدبر كل شيء فوجب أن يكون عالماً بكل شيء . وقد وصف نفسه بالعلم مراراً وتكراراً فى القرآن كما قدمنا فهو العالم والعليم بكل شيء وهو العالم وحده بغيب السموات والأرض ، إنه صاحب العلم كله ، علم ما كان وما يكون وما هو كائن . وكان الغد كله وما فيه من غيب سجل مفتوح أمامه سُجِّل فيه كل ما يحدث فى العالم ، إنه المهيمن المسيطر عليه وكل ما يجرى وسيجرى فيه لا يغيب عنه شيء منه ، وإنه ليعلم كل ما سيقع كما نعلم نحن ما نشاهده بأعيننا ، إذ المستقبل كالحاضر والماضى عنده ، بل إن هذه الحدود الزمنية إنما هى بالقياس إلى الإنسان ووجوده وحياته ، أما بالقياس إلى الله فتلك الحدود حدود وهمية ، إذ الكلّ عنده زمان ممتد أمام علمه القديم الأزلى ، وقد مثل هذا العلم تقريباً لنا كأنه كتاب مدوّن فيه ما كُتِب على الناس أو بعبارة أدق ما يكسبونه من خير ويكتسبونه من شر ، وهى كتابة ليست بقلم ولا مداد ولا فى صحف أو فى ألواح ، فالله جَلَّ شأنه منزّه عن كل هذه الوسائل التى يستخدمها الإنسان لعلمه ، ضرباً

من قصور علمه عن علم ربه الذى وسعَ علمه كل شيء ، والذى يرتفع علمه عن كل تكليف ، علماً يعلم به كل شيء مما خلق كما يعلم وجوده ومصيره . وقد اضطرب كثير من السابقين إزاء تصوير القرآن لهذا العلم حين يتعلق بهدى الناس وضلالهم ، فظن الجبرية أنهما مكتوبان على الإنسان ولا يستطيع من كتب عليه الضلال أن يصبح من أهل الهدى ، وتصوير القرآن لذلك إنما هو لبيان علم الله ، وهو علم لا يقتضى الجبر ولا الإلزام ، فلإنسان استطاعته التى تهديه إلى طريق الخير أو تنصرف به عنه إلى طريق الشر . ومهما يكن فالغيب كله لله لا يعلمه سواه ، وقد استأثر لنفسه بمعرفة الساعة وموعدها المحدد ، فليس لأحد من علمه شيء رسولٍ أو غير رسول ، وإنه ليقول للرسول الكريم فى سورة النازعات : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشَاهَا) فقد سأل الكفار الرسول عليه السلام متى يُرْسِي اللهُ السَّاعَةَ وَيَقِيمُهَا وَيُثَبِّتُهَا ، فقال الله له وكأنه يؤنبهم على إلحاحهم على رسوله أن يعرفوا منه زمنها : (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) وهو ردٌّ وإنكار لسؤال الكفار أى فى أى شيء أنت من ذكر وقتها لهم كما قال له فى سورة الأعراف : (يَسْأَلُونَكَ كَائِنَ حَقِّيُّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ) وَحَقِّيُّ مَهْمٌ بِهَا وَعَالَمٌ بِأَمْرِهَا ، والله وحده عنده معرفة موعدها وانتهاء علمها وتحديد وقتها ، فما بالهم يكثرون من سؤالك عنها ، وتعيين وقتها ليس من عملك ، فما أنت إلا رسول منذر مبين عن قرب وقوعها ، تذكّرهم بها وبأهوالها ، وتنذرهم بما سيكون وراءها من عقاب وعذاب ، فمهمتك إيصال الوعيد بأنّها طامة كبرى وداية عظيمة ، وقارعة تفرغ الأسباع والأفئدة ، فإذا كل ما قدمه الإنسان فى دنياه محسوب عليه

فمن عبد آلهة مثلكم غير الله وتمرد على طاعته ولم يؤمن برسوله ورسالته كانت الجحيم مأواه ، ومن آمن بالرسول ورسالته وعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً وأسلم وجهه لربه وكبح الهوى في نفسه كانت الجنة مشواه . ومرت بنا في سورة الرحمن صور العذاب الهائلة التي تنتظر المشركين في اليوم الآخر والتي ظل القرآن يعرضها حتى تقشعر جلود الكفار ويرعوا عن غيهم ويزدجروا عن كفرهم وعصيانهم ، فمن تصوير للحشر وأهواله إلى تصوير للحساب وموازينه إلى تصوير للجحيم ودركاتها ووقودها من المشركين الآثمين إلى ما ينتظروهم فيها من طعام الزقوم الذي يغلى في بطونهم كالنحاس المذاب ، إلى شراب الحميم الحار الذي يقطع أمعائهم ، وهم يتضورون ألماً وعطشاً وجوعاً ويصبحون ولا منقذ ولا مغيث ، فالنار تأخذهم من كل وجه ، وكلما احترقت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها ، يعاد خلقها لكن تحترق من جديد ، حتى يظلوا في الألم وفي العذاب الشديد . وتلك هي وظيفة الرسول أن ينذر الكفار وأن يصور لهم أهوال الحشر والحساب والعذاب حتى يتداركوا موقفهم وينيبوا إلى ربهم ويفوزوا برضوانه ، أما إذا ظلوا في غيهم وبغيهم وكفرهم وعنادهم فإن مصيرهم إلى الجحيم ونيرانها الحامية ، والموعد الحشر وقيام الساعة ، وإنه لقريب .

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ) :

تصوّر الآية الكفار المكذبين ليوم الدين وأنهم حين يرون الوعد والحشر (زُلْفَةً) قريباً منهم تسود وجوههم وتعلوها الكآبة وغبرة المذلة والهوان . وعبر

الله بالفعل الماضى للدلالة على أن هذا التصوير سيحدث يقيناً حين يُحْشَرُونَ
ويرون عملهم السيئ فتظهر حينئذ على وجوههم سمات كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِمْ
بالله وَعِضْيَانِهِمْ ، ويبدو عليها الكدر والعبوس والسواد كما قال الله تعالى
فى سورة آل عمران : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) وهو يوم الحشر
تستبشر وتبيضُ وجوه المؤمنين وتبتئس وتسود وجوه الكافرين .
ذلك إنما يكون عند الحساب فمن رجحت حسناته ابيضُ وجهه ومن رجحت
سيئاته اسودَّ وجهه ، أما المؤمنون فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً ، وأما
الكافرون فتصير وجوههم مثل الفحم سواداً . وقيل : بل البياض والسواد
والسوء كل ذلك مجاز ، أما بياض الوجوه فالمراد به إشراقها بالنعيم فهى
متهللة بما ينتظرها من ثواب ، وأما سواد الوجوه فالمراد به إرهاقها بالألم
والبؤس ، فهى مكتئبة لما ينتظرها من العقاب ، وهى لذلك شديدة العبوس
كالحة متجهمة لما تتوقع من أهوال العذاب . وكل ذلك وعيد من الله وإنذار
للكفار حتى يُقبلوا على ما عنده ويسعدوا فى الدنيا والآخرة ، غير أن قلوب
فريق منهم ، وهم الذين تمادوا فى كفرهم وشركهم ، كانت قاسية بل كانت
أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتشقق بالخير ماء وغير ماء ،
أما قلوبهم فأصبحت كالصخر لا ينبجس منه ماء ولا خير ولا يرجى منه
صلاح ولا نفع ، وكأنما كتبوا بأيديهم شقاءهم وحرمانهم من رحمة الله
ومغفرته ، فاستحقوا عذابه الأليم ونار الجحيم . ويسألهم زبانية جهنم أو
يسألهم لسان حالهم استهزاء بهم وتوبيخاً لهم : (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَدْعُونَ) وكلمة (تَدْعُونَ) إما من الدعوى أى كنتم به تدعون من الأباطيل
وأن لا بعث ولا حشر ولا عذاب ، وإما من الدعاء ، وهو الاولى ، أى
تستدعونو وتطلبونو فى دنياكم وتتمنونو كما حكى الله عنهم فى سورة

الأنفال من قولهم في الذكر الحكيم حين كان يتلوه عليهم الرسول عليه السلام : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ، قالوا ذلك استهزاء وإمعاناً في العناد والجحود حتى ليتمنون العذاب في الدنيا وأن ينزل عليهم حاصب من السماء كما نزل على أصحاب الفيل . وقد تحققت لهم أمنياتهم في الآخرة وأصبحت حسرة لهم ، وإنهم ليندمون بعد فوات الأوان على ما كانوا يرددون من هذا القول الذي يوشك أن يطوق أعناقهم بالسلاسل والأغلال . ويحكي الله عنهم في سورة ص أنهم كانوا يتجهون إليه بالدعاء قائلين : (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) والقيطُ الجزاء ، وقيل النصيب من العذاب ، وقيل : بل النصيب من الثواب ، كانوا يقولون ذلك استهزاء بما كان يتلوه عليهم الرسول عليه السلام من مثل قوله تعالى في سورة الانشقاق : (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) إذ كانوا يستعجلون الرسول تلك الكتب ويسألونه أن يأخذوها في دنياهم وأن يُمثّل لهم رأى العين منازلهم في النعيم والجحيم ، حتى يعجلّ لهم أرزاقهم وحتى يتيقنوا من حقيقة ما يوعدون به ، وبلغوا من عتوهم أن كانوا يتوجهون بذلك إلى الله رب محمد يدعونه أن ينزل بهم الثواب أو العذاب . وكأنه يقال لهم إن هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً وسخرية قد أصبح واقعاً لا تستطيعون منه فراراً ولا خلاصاً .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُعْجِرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) :

معنى (أَرَأَيْتُمْ) أخبروني ، وأنبئوني ، تهديداً ووعيداً . وكان كفار مكة

يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهلاك ، وكانوا يقولون
كما حكى الله قولهم في سورة الطور : (شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ)
والتربص : الانتظار و (رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ) : صروفه ، والمؤمنون ، كما هو معروف ،
الموت . كانوا يقولون ننتظر به نوائب الدهر وصروف الموت فيهلك كما هلك
غيره من الشعراء في العصر الجاهلي أو ننتظر به الموت السريع ، فقد يموت ،
كما مات أبوه ، شاباً . وهي أمنية سخيصة كأمنية الأطفال في الكتاب أن
يموت معلمهم ، وأى أطفال ؟ الأطفال البلاء الأغبياء الذين لا يقدر
التعليم ولا الخير ولا الرشد ، ومثلهم كفار قريش الذين كانوا يتمنون
الهلاك والموت لرسولهم ومعلمهم ومنقذهم مما كانوا فيه من وثنية ومما كانوا
يرهبونه من آلهة خرافية وما كانوا يعانونه من جهالة وهمجية وانحطاط في
الفكر والروح والخلق . وقد أمر الرسول في الآية الكريمة بأن يقول لهم نحن
مؤمنون بالله ومنتظر منه إحدى الحُسْنَيْنِ إما أن نهلك ونموت كما تتمنون
فننتقل من تلك الدار الفانية إلى الدار الآخرة ونفوز بما وعدنا به من جنات
ونعيمه ، وإما أن يرحمنا فيطيل آجالنا ويسبق علينا النصر للدين الحنيف
وتصبح كلمته هي العليا . أما أنتم فمن يجيركم وينجيكم من عذاب
النار ، إنكم تطلبون لي ولصحبي الهلاك كما تظنون ، وهو ليس بالقياس
إلينا هلاكاً ولا موتاً ، بل هو فوز وسعادة ، وكأنكم تستعجلونهما لنا من
حيث لا تدرون . أما أنتم فقد أحاط بكم هلاك محقق لا هلاك مثله ،
وتتأدون فيه كأنكم عميت أبصاركم وصمت آذانكم وقام بينكم وبين
الهدى حجاب ، إنكم غافلون استبدت بكم الغفلة واستبدت الشرك والعناد ،
وها هو ذا عذاب الله منكم قاب قوسين أو أدنى وأنتم لا تتدبرون أمركم ولا

تطلبون الخلاص . وكأن الله بذلك يحثهم في قوة على المسارعة إلى الدخول في دينه حتى تكتب لهم النجاة ويكتب لهم الفوز في الدارين . وقيل إن معنى الآية أن الله تعالى إن أهلكنا بالموت ونحن هدايتكم فمن يجيركم من النار؟ وإن رحمتنا بالغبلة عليكم عكس ماتمنون فمن يجيركم؟ إن المغلوب على أيدينا هالك في الدنيا والآخرة . وقيل إن المعنى إن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا كما تدعون فمن يجير الكافرين وهم بالهلاك أولى؟ وإن رحمتنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له؟ وقد ذكر الرمخشري المعنيين الأخيرين بجانب المعنى الأول، وهو أولى لما فيه من تسفيه أمانتهم وأنهم يطلبون ما فيه سعادة الرسول وصحبه دون أن يدروا، وأيضاً لما فيه من حثهم على النجاة مما أحاط بهم من هلاك وبوار، وكل ذلك مما يرجح المعنى الأول، ولاريب في أنه أكثر التثاماً مع السياق وأشد ارتباطاً به واتساقاً، وتوثقاً والتحاماً .

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

كأن هذه الآية الكريمة إجابة ثانية عن تمنى الكفار مالا يجديهم من هلاك الرسول عليه السلام وأصحابه . وهي تعريض واضح بهم وأنهم يؤمنون بما لا ينفعهم في الدنيا والآخرة ، أما الرسول وأصحابه فيؤمنون بالرحمن صاحب الإلاء والنعم على الناس جميعاً ، وإنها لنعم وآلاء تشمل الرسول ورفاقه في الآخرة ، إذ سينجيهم من عذاب النار يوم لا يجير الكافرين ولا يخلصهم منها أحد . وهم لا يؤمنون بالله فحسب ، بل أيضاً يتوكلون عليه ويفوضون أمورهم إليه خاصة دون غيره ، ونعم الوكيل . ومررنا في تفسيرنا للآية : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) حديث عن الشوكل وأنه إنما يكون بعد العمل وبعد الحركة في طلب المعاش

كسوكل الزارع بعد إلقاء الحبِّ في الأرض ، ونزيده الآن بياناً ، لدخول الشبهة فيه على بعض الناس لقوله تعالى في سورة الذاريات : (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) وليس المراد بالرزق في الآية الرزق بالمعنى العام وإنما المراد المطر بإجماع المفسرين كما قال تعالى في سورة غافر : (وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) ولم يحدث أن نزلَ من السماء خبز ولا طعام ، بل لا بد من العمل واتخاذ الأسباب حتى يمكن للمرء الحصول على الخبز والطعام ، وفي الحديث : « اطلبوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ » أى اطلبوه بالحرث والغرس والزرع ، وفي سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) واتفق المفسرون على أن المعنى أنهم يتجرون ويحترفون ، والآية تقرُّ أن طلب المعاش إنما يكون بالأسباب وبالتجارة والصناعة والزراعة . فالتوكل على الله لا يعنى القعود عن العمل ، أما ما يُحكى عن بعض النساك من أنه كان لا يعمل عملاً أو أنه كان إذا حَجَّ لم يحمل معه مالا ولا شيئاً من زاد أو طعام فإن ذلك ليس من التوكل القويم الذى دعا إليه الإسلام ، وإنما دعا إلى الثقة بالله لا غير ، أما بعد ذلك فيعمل المتوكل ، ولا يعرض نفسه للحاجة وذلّ السؤال ، وفي الحديث : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا عَطَاءً أَوْ مَنَعَهُ » ولم يُنقلْ لا عن الرسول عليه السلام ولا عن أصحابه أنهم خرجوا في أسفارهم بغير زاد ، وهم في النيرة من التوكل على الله . وفي صحيح البخارى أن أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : (وتزودوا) . فلا بد مع التوكل من اتخاذ الأسباب والوسائل . سنة الله في أنبيائه وفي

الحياة وسنة رسوله ، وسنة السلف الذين كانوا يقولون أتجروا واكتسبوا واتكلموا . وهذا هو التوكل الحق ، توكل على الله واعتماد عليه وتناول للأسباب ، أما ما يُروى عن أهل الصفة الذين كانوا ينزلون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وينسكون ولا يعملون فليس ذلك بصحيح ، إذ كانوا ضيوف الرسول يواكلهم وكانوا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوته ، بذلك وصفهم البخارى وغيره . فالتوكل الصادق الذى انعقد عليه الإجماع لا بد أن يرافقه العمل ولا بد أن تصحبه الأسباب ، أما التوكل الذى يعنى إظهار العجز والاعتماد على الغير وما فى أيدى الناس فليس من التوكل الحق فى شيء . ويقول الرسول بأمر ربه للكفار إننا آمننا بالله إيماناً صادقاً وتوكلنا عليه توكلنا حقاً ، وستعلمون (من هو) منا أو منكم (فى ضلالٍ مبين) فى الدارين . وهو إخبار لهم بأنهم ضلوا سبيل الهدى على طريقة واضحة من الإنصاف ، فقد استبان أنهم غارقون فى الضلال ، وهو كقول المؤمن بصحة كلامه لصاحبه : أهدنا كاذب ، وقد علم أنه الصادق الذى لا يرقى إلى صدقه شك وأن صاحبه كاذب دون امتراء ، وفى ذلك إلزام للحجة بأبلغ أسلوب وأرفع .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) :

يقول الله جل ثناؤه لرسوله قل لهم أنخبروني يا معشر قريش إن غار ماؤكم فى بئر زمزم وبشر ميمون ولم تعودوا تناولونه بأيديكم ولا بالدلاء (فمَنْ) غير الله (يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) أو بما جاز . وهو بيان لنعمه على الناس وأنه كان ينبغى على الكفار أن يكون مثلهم مثل المؤمنين فلا يجحدوه

بل يشكروه ويحيلوا شكرهم له عبادة ونسكاً . ونَحَصَ الماءَ من بين نعمه بالذكر ، لأنه أعز مفقود وأهون موجود ، وهو من أعظم نعم الله على الإنسان ، وفيه يقول في سورة الأنبياء : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فليس حي من الإنسان والحيوان والنبات إلا وفيه ماء أو خلق من ماء أو أصابه ماء . والنُّظْفَةُ ماء ، يقول جَلَّ ثناؤه في سورة الفرقان : (وهو الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) . والماء طَهُور الأبدان ، يقول الله في نفس السورة : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) يطهر كل شيء . وقد سماه الغيث في مثل آية لقمان : (وينزل الغيث) لأنه يُغِيثُ به الخلق بعد قنوطهم ويأسهم من السماء . وهو يُشْرَبُ صِرْفًا خالصاً وممزوجاً وكل شراب سواه لا يشرب بدونه ، ويدخل في كل الأطعمة ، ومهما بلغ الطعام والشراب من الطيب فإن اللذة بهما لا تكمل للشارب والطاعم إلا بجرعات منه ، وبه يغسلان فهما لينظفاه ويطيباه ، إذ هو العذب الفُرات السائغ الوحيد . وإنه لدواء وشفاء وإن جرعة منه لذي القُصَّة وكذلك لذي الغُلة العطشان لا يعدلها شيء في الدنيا ، ويقول جَلَّ شأنه لكفار قريش في سورة الواقعة : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْلَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ لَقَدَرْنَا لَكُمْ بِهِ عَذَابًا عَظِيمًا) . وقد أن المطر ينعقد من مياه البحار الملحة ، يصعد في السماء وينزل عذباً بقدره الله . وقد ذكر الله في آيات مختلفة تذليله البحار للإنسان كي يُجْرَى فيها سفنه وتحلث في آيات كثيرة عن نعمه وآلائه فيما أنزل من السماء من غيث وشقق في الوديان والصحارى من آبار وعيون حتى لكأن الماء يقوم من الأرض مقام الغذاء ، غذاء يشق القلوب الكليمة والنفوس الجريحة .